الباب السابع

فى الطائفة الرابعة وهم علماء الفلسفة العالية

الذين درسوا علم النفس

الى هنا وصل علماء الطبيعة وقالوا لاطاقة لنا بما فوق ذلك فان هذا آخر ماوصلت اليه ابحاثنا ، ولو عرفنا علم من هم أرقى منا من علماء العلم الأعلى ما اقتصرنا على هذه المباحث فجاء قوم أرقى منهم عقلا وأسمى نظرا وقالوا نحن عرفنا ما عرفه عوام الناس وشعراؤهم وما استنتجه رياضيوهم من القياس فى الجسم وما أدركه مشرحوهم وطبيعيوهم فلنبحث اذن نحن عما هو أرقى من هؤلاء ولا يصح لنا الوقوف عند هذا الحد وقد قال تعالى وفوق كل ذى علم عليم تنبيهاً لذوى العقول على الجد والبحث والتشمير فى نظر الأشياء ولقد رأينا الأطباء لا يعرفون من الانسان الا أعضاءه المفصلة وروحه الحيوانى وهو عبارة عن خلاصة الدم الحاملة للحرارة الحيوانية السارية فى سائر الحواس وما هذه الحرارة الا كسراج يدار فى جانب المنزل فتضئ جوانبه وتخرج منه أضواء الى الخارج من منافذه فهكذا هذا الروح الحيوانى المنبث فى أعصاب الحس وأعصاب الحركة الخارجة من الدماغ والنخاع الشوكى ، وهذا الروح هو الذى يعرفه الطبيب فاذا سد شريان أو وريد اوانقطع عرق أووقف العضو عن العمل عالج الطبيب هذا العضو حتى يخلص الروح الحيوانى اليه .

أما ما فوق ذلك من عالم النفس الذى هو أرقى من الضياء فهو من عالم فوق عالمنا وفوق قدرة الطبيب ، ولا يمكن معرفة بعض ظواهره إلا بمزاولة الطبيعيات والرياضيات ، وقد قدمنا فى كتابنا هذا وسائر كتبنا ما يكفى الذكى ان يدخل معنا فى عباب البحث فى هذا العلم

وقد قدمنا فى آخر التشريح قريباً أن البصر أدرك الأضواء وبها ميز الألوان بعضها عن بعض والأشكال والصور والجمال والتناسب وقد كبرت العين وتعاظمت أن تتنازل الى الهواء فتبصر بواسطته وتشامخت عن المادة وارتفعت الى ماهو متوسط بين المادة والمجردات

أما العقل الذى يستخدم تلك الحواس ويدرك بواسطة الجزئيات الآتية اليه كليات كأن الكل مثلا أعظم من الجزء من مبادىء الهندسة ومبادئ معرفة مالادخل للانسان فى خلقه والتمييز بين الحسن والقبيح من أفعال الانسان وهى الحكمة العملية فذلك لا يجوز أن يكون مدركا بلا شئ مشرق عليه مما يناسبه

وكما ان العين مع صحتها لا تدرك الا باشراق أنوار عليها من الكواكب البعيدة عنا المرتفعة جدا فهكذا عقولنا التى هى أرقى من أبصارنا لا تدرك إلا باشراق نور عليها من عالم لا يجوز أن يكون جسما والا لكان هو أخس من العين ولا متوسطا بين الجسمانى وغيره والا لكان مساويا للعين وقد علمناه أرقى منها مكانا ومكانة واحاطة ومعلومات فاذن ادراكه انما يكون باشراق نور من مجردات عن المادة لانراها بحواسنا وانما عرفناها بعقولنا، وكما أن البصر لا يدرك الا اذا كان صحيحا فهكذا العقل لا يدرك الا اذا سلم من الآفات وكما أن البصر لا يدرك بنفسه وانما يدرك بواسطة نور يأتى له من عالم أعلى وهى الكواكب فكذلك العقل لا يدرك وان كان صحيحا الا باشراق عليه مما يناسبه

وكما أن البصر يدرك النور بنفسه ويدرك بواسطته الأشياء ويدرك مشرق النور وهى الكواكب ولا يدرك ذلك كله حاسة أخرى مما هى تحت العين فهكذا العقل يدرك الأشياء بواسطة اشراق يناسبه من موجود ليس بجسم فيدرك ذلك النور ومبدأه ولا يقدر على ذلك غيره مما هو أسفل منه طبعا وهو البصر وغيره وكما أن الأضواء الآتية من الكواكب بعيدة عنا جدا مرتفعة مكانا فكذلك الموجود الذى لا نراه

الذى يشرق النور على العقل الذى ليس له مكان أعلى فى الرتبة والشرف من العقل بما لا نهاية له

وكما ان العين مع صحتها واحاطة النور بها قد لا تبصر لمانع صرفها عن ذلك كاطباق الجفن فهكذا العقل قد يحجب عن التعقل والتبحر فى العلم بانصرافه الى جهة الأغذية والمآكل والملابس والعداوة مع الناس وموالاة الأصدقاء ومعاداة الأعداء والى ذلك تشير الحكمة الاسلامية

(لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات والأرض) وكما ان مشرق النور وهى الكواكب لايعرف منها لشدة بعدها الاظواهر قليلة لا نعرف حقائقها ، بل نرى أكثرها قدر بيضة مع انها قد تكون أكبر من الشمس فكذلك من أشرق نوره وهو مبدع هذا الكون على نفوسنا لا نعرف عنه الا ما يصل من نعمه لنا نظير ضوء الكواكب ولا نعرف من صفاته الامقدارماعرفنا من جرم الكواكب و كما ان فينا قوما نظروا بالمنظار المعظم فعرفوا كثيرا من ظواهر الكواكب وآخرين بالبرهان علموا أبعادها وأقدارها واقطارها فكذلك العلماء من جملة الناس قد يبحثون بالعقل تارة و بصفاء الفكر أخرى فيتجلى لهم كثير من العلم بصفات من أشرق نوره على النفوس وهو مبدع هذه الكائنات ، ومن هذا تعلم كيف أقسم بمواقع النجوم على مدح القرآن وما المناسبة بينهما فقال (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فتأمل كيف أقسم بمواقع النجوم ثم أعظم هذا القسم وأكبره جداً وأشار الى جهل أغلب الناس به فقال لو تعلمون وذكر المقسم به وهو مدح القرآن وأشار الى انه فى كتاب مكنون اشارة الى بعد منالة كما بعدت الكواكب وكل هذا لما بين العلم ومصدره والكواكب وأنوارها من المشاكلة ، وأما النور فنظير قرآن كريم ، وأما

مصدره فنظير تنزيل من رب العالمين لأنه هو معلم العلم ومنزل الكتاب كما ان الكواكب مشرق النور

ومن هذا التقرير تعلم كيف يتصور أن يكون موجود ليس بجسم وانه أرفع وأجل من النور وأبهى وأبهر وانه محيط بكل شئ واذا رأيت أن النور أكثر احاطة بالأشياء فلابد أن يكون ما فوقه أكثر احاطة بما يعجز النور عنه وتعلم كيف مثل ذلك بقوله — الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح — الآية ولسنا نأتى بهذه الآيات مقلدين وانما هى البراهين والحجج العقلية التى نراها بعقولنا كما نسمعها من الشرع ليتحد النقل والعقل واعلم أن العقل هو الغذاء والنقل هو الدواء كما ذكره الغزالى فى احياء علوم الدين

هذا ولعلك شائق ما سمعته الآن الى معرفة ما هى النفس وما صفاتها وما الذى تحسه وكيف تحس فهاك البيان فنقول :

اعلم أن النفوس ذللت لها هذه الكائنات وكأننا اذا دققنا النظر لم نجد حولنا الا شيئين خادما ومخدوما فالمخدوم هى النفس والخادم هى المادة ولا ريب ان كلتيهما لم تظهرا قط وانما الظاهر صفاتهما فقد أجمع حكماء العصر والأقدمون ان المادة لم يمكن ظهورها الا لصورها المختلفة كما أثبته القدماء . وهكذا مذهب لابلاس الذى اعتبرها كرة غازية تنوعت الى آخره : وما أشبه المادة الا بغادة حازت جميع المحاسن التى يتصور وجودها فى العقل ثم وقفت أمام النفوس بحللها وحلاها (والنفوس لم تظهر الا بصفاتها كالمادة فظواهر كل منها تجلت لظواهر الأخرى) وجالها وبهاها ونرى النفوس كالعشاق والمادة كالمعشوق فتتمتع بجميع ما فيها من المحاسن واللطائف بحواسها الخمس وتخزن منها ما رق وراق بصور فى قواها الباطنة كما يستحضر العاشق صورة المعشوق واليه الاشارة بقوله (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً) وقال أيضا (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا) ولذلك ترى أغصان الأشجار كأنما تمد يدها بالأزهار وتسلم على الناظرين اليها وتحيى القادمين عليها وكأن كل شئ يدعوك بلسان حاله (خذ

ما تشاء) ، (كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) وقد آن لنا أن نشرع فى المحسوسات فانه أسهل ثم كيفية وصولها الى الحواس ثم الحواس الظاهرة ثم الباطنة فنقول :

المحسوسات

اعلم ان الجسم جوهر طويل عريض عميق وهكذا النفس كالجسم ولكنه ليس لها أبعاد ثلاثة وهذا هو الفرق بينهما وانما هى جوهر ليس بمادة وهذا التعريف هو بعينه قولهم انه مركب من هيولى وصورة فالهيولى هى المادة أو الجوهر ومعنى الجوهر هو الموجود الذى ليس صفة فى غيره كالبياض والحمرة والصفرة وهكذا والصورة هى الابعاد الثلاثة والمادة يستحيل ظهورها إلا بالصورة فهى لم تعرف الا بالدليل إذ لم نر إلا الجسم واما المادة التى هى أحد جزئيه فلم تر قط . وإذا علمت ان الجسم ماذكر فجميع مازاد عن الامتدادات الثلاث فهى صور متممة وهى صفات كثيرة وكل جملة منها تختص بحاسة من حواس النفس الانسانية فالحواس خمس اللمس والذوق والشم والسمع والبصر وصفات المادة ست وثلاثون صفة فعشرة منها لحاسة اللمس وهى الثقل والخفة واللين والصلابة والملاسة والخشونة والرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة فهى انما تدركها القوة اللامسة بملاصقتها لها وهذه الصفات للجسم لامن حيث هو جسم وانما هى عوارض حدثت له من أحوال عارضة والثقل والخفة لاندماج المادة وانجذابها نحو الأرض مع قربها فى الأول وعدم اندماجها وتخلخلها أو بعدها عن مركز الجاذبية فى الثانى وهكذا بقيتها فالرطوبة لقلة المواد السائلة عليها واليبوسة بالضد والخشونة لوجود نتوات كثيرة فى سطحها والعكس بالعكس و بقيتها ظاهرة وقوة اللمس تدرك هذه العشرة من صفات المادة بملامستها

المذوقات

وللأجسام تسع صفات أخرى وهى الحلاوة والمرارة والملوحة والدسومة والحموضة والحرافة والعذوبة والقبض والعفوصة كالعسل والحنظل والملح والزيت واللبن الحامض والفلفل والماء والليمون والعفص فهذه التسعة لواحق للمادة ومحاسن قدمتها هدية إلى حاسة الذوق .

ومن العجيب ان هذه الطعوم التسعة انما تكون فى خلاصة المواد لا كالملموسات التى كانت صفات لجميع المواد فتأمل كيف كانت خلاصة المادة هدية للذوق الذى جعل فى الفم وهى أرقى من الملموسات فكانت الخلاصة للأعلى

المشمومات

وكثير من النباتات والمواد الأخرى تخرج منها أجزاء لطيفة تمتزج بالهواء فيتكيف بها فيصل الى قوة الشم فى الأنف وتصل إلى الدماغ فيحس بريحها وينقسم إلى محبوب ومكروه ، فتأمل كيف كانت حاسة الشم فى الوضع أعلى من سابقتيها ولها الشرف من حيث لطف ماتستعمله . ألا ترى أنه لايأتى لها إلا مواد لطيفة فى الهواء سائرة اليها فقد استخدمت الهواء لتنال مشتهاها أما سابقتاها فانهما تباشران نفس المادة بدون توسط الهواء ولعمرى انه لوضع عجيب

المسموعات

و إلى هنا عرفنا صفات المادة الأحد والعشرين الموزعة على تلك الحواس الثلاثة ولا جرم انها كلها غليظة لم تصل إلى اللطف التام و بقى للمادة بهجة أرقى مما ذكر وهى الأصوات الناشئة من اصطكاك بعضها ببعض ولعمرى ان هذه الصفة وحدها تكاد تعبر عن محاسن المادة وتعرب عما استكن فيها من الجمال ولما ضعفت أن تؤدى مافيها من المحاسن وتظهر مااستكن فيها من الجمال لضيق نطاق الصور اذ لاتسع صورتين فى

أن واحد مع انها مستعدة لصور لانهاية لها ولذلك تراها تلبس صورة وتخلع أخرى فعبر عن تلك المحاسن والاستعدادات بالنغمات الموزونات المتتابعات لتقوم مقام الصور الكثيرة فى الأزمان المتباعدة وسرت تلك الأصوات فى أرق جزء من الأجسام وهو الهواء اللطيف فأتى إلى الأسماع فطربت النفس وصنت ، ولعمرك ان النفس وقد سمعت الألحان لأشبه شيء بمن عشق فسمع كلام معشوق .

وترى ان النغمات كلما كانت أكثر وزنا وأحسن وقعاً زادت قبولا و بهجة وحسناً عند النفس لمشاكلتها وزن الصور وتناسقها .

والأصوات اما حيوانية أو غير حيوانية وغير الحيوانية إما آلات كالطبول والأوتار و إما طبيعية كخرير النهر وصليل الحديد .

والحيوانية إما منطقية و إما غير منطقية الثانية أصوات الحيوانات والأولى أصوات الانسان وهى إما مفهومة أو غير مفهومة فالأولى كالاشعار ونحوها والثانية كالضحك والبكاء فهذه خمسة

فانظر كيف كان الهواء اللطيف يحمل هذه الأصوات مع اختلافها وكثرتها ولا يختلط بعضها ببعض فيحمل صوت الأشجار وما حولها من الحشرات الصغيرة والحيوانات الكبيرة والانسان والنهر الجارى و يسمع الانسان هذا كله و يميزه إذ الهواء لطيف و بلطفه يسع هذا كله

وتأمل كيف تحفظ الأذن هذه الأصوات كلها وتميز بينها مع انها ليس لها لطف الهواء ، ولكن قد اكتشف الطب الجديد ان القوقعة التى هى وراء أعصاب الأذن فيها سائل داخله حبوب صغيرة تبلغ نحو ثلاثة آلاف كل منها متصل بعصب دقيق جداً اختص بسمع نوع من الاصوات فقد قامت كثرة الأعصاب فى الجسم الكثيف مقام لطف اللطيف (إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) فعلم كثافة الجسم ففرق الصوت على الأعصاب لا كالهواء الذى هو لطيف محيط بالأرض صالح لحمل المختلفات فتراه محيطا بالقائلين والسامعين على الدوام . وههنا يجب

تذكر النعم الواصلة من الرب لعباده فالهواء لا نستغني لحظة عنه لغذاء أجسامنا بتلطيف الدم اذ لسنا فى تلطيف دمنا أحوج منا اليه فى كلامنا وتوصيل أخبارنا والتواصل فيما بيننا مع ما فيه من نقل الروائح الينا لنعرف الضار والنافع ، فما أقصر عقول كثير من نوع الانسان لا يحمدون الله على مثل هذا وانما يحمدونه على المال والغنى أما المبذول لنا فى كل آن مع شدة حاجتنا اليه فلا نكترث به ولا نعده نعمة وهذه معنى قوله (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) ، (إِنَّ الانْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) نعم هذا هو كفر النعم

المبصرات

أما المبصرات فهى عشرة : الأنوار والظلمات والألوان والسطوح والأجسام والأشكال والابعاد والأوضاع والحركات والسكنات فالظلمة ترى ولا يرى فيها غيرها بل هى كالحجاب أما النور فيرى وترى به الألوان وبها تظهر السطوح وهى لا تقوم الا بالأجسام فتظهر تبعاً لصفاتها والجسم لابد له من شكل فتظهر الاشكال فالابعاد فالأوضاع فالحركات والسكنات والحامل لهذه العشرة هو الضوء المشرق من الكواكب السارى فى العوالم كلها الداخل فى العيون الزجاجية المناسبة له كل المناسبة الموضوعة بترتيب يناسب نواميس الضوء فتجتمع الصور على الشبكية ثم تذهب الى المخ مع أخواتها السابقه فيحكم بين جميعها وهو من لطاف الحاكمين

واعلم أن تقسيم الأجسام الى مضيئة ومظلمة خطأ وانما هى مظلم وهو ماله ظل كالأرض ومضيء كالشمس وهو مالا ظل له يعطى الضوء لغيره وشفاف وهو مالا يحجب الضوء وانما يسرى فيه ويفيض على ما بعده ومنه عين الانسان والزجاج وبعض الأحجار الكريمة والماء والهواء وجسم الأثير الذى تسبح فيه اجرام الافلاك

واعلم ان الألوان بعضها حقيقى وبعضها غير حقيقى فالأول ألوان الزرع مثلا ، والثانى كخضرة الهواء وزرقة الماء العميق وهذا رحمة من الله ولطف بالحيوان اذ يحتاج

فى تصرفه الى نظر نحو السماء حين يبحث عن الأغذية والى النبات وهو يرعاه فاقتضت الحكمة الالهية تلك الخضرة وأختها الزرقة فى الأرض وفى السماء لشدة مناسبتهما للعيون (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) فهذه حكمة تحار فيها نفوس العقلاء ويخر العقل ساجدا ويا قوم كيف جعل فى الأجسام الشفافة ناموس علم فيها وهو الزرقة فى عمقها المتباعد ، وكيف كانت بهجته بهجة الحيوان وحسن منظره ، وأن هذه الظواهر حكم وراءها جمال وبهاء وحسن أعلى وأشرف وأبهج (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ) بهذا يفرح الأذكياء المجدون ويفر فرار جعل من ريح الورد الجاهلون . فالملموسات عشرة والمذوقات تسعة والمشمومات اثنان والمسموعات خمسة والمبصرات عشرة فالجميع ستة وثلاثون وأغلب هذه تسمى الكيفيات المحسوسة وقد دخل معها الوضع وهو ما يرى من الترتيب ونظام العسكر وطرق البساتين ونظام المنازل والأشجار وكل حسن وبهاء وهو الجزء المهم من علم تمييز الجمال

ثم ان الكيفيات المحسوسات قد تكون راسخة كحلاوة العسل وملوحة ماء البحر وتسمى انفعاليات وان كانت غير راسخة كحمرة الخجل وصفرة الوجل تسمى انفعالات هذا فى غير الأنفس فان كانت الصفات الراسخة فى الأنفس سميت ملكة لجميع المتدربين على العلوم واللغات وان لم ترسخ سميت حالا

وبعض الأجسام فيه صلابة بها يدفع الوارد عليه كالحديد ويسمى هذا الاستعداد قوة وبعضها فيه ضعف عند ورود خارج عليه ويسمى ضعفا كالماء والسوائل كلها

فعلم لك من هذا الكيفيات كلها ومعها الوضع والكم المتصل الذى هو الابعاد الثلاثة ، وهناك كم منفصل قار وهو الاعداد وفروع علوم الرياضة الحسابية كلها تبحث عنه كما يبحث عن الكم المتصل وهو ابعاد الجسم الثلاثة فن الهندسة وفروعها وكما يبحث الفلك عن الكم المنفصل الذى ليس بقار وهو الزمان وكما يبحث فى الطبيعيات كلها عن جميع الجواهر ويلاحظ فى علم التاريخ المتى وفى الجغرافيا الاين وفى علم تمييز الجمال الوضع وفى الصنائع كلها والحروب والتعاليم الفعل ، وفى المواد السائلة

والمسبوكات والمصنوعات والمتعلمين والمحكومين الانفعال وفى الاحاطات كلها كاحاطة الثياب بالأجسام والماء بالأرض والهواء بهما مقولة المالك وفى علوم الانسان ومعرفة منازل الناس ونسب العلويات الى السفليات واللطائف الى الكثائف والاسراع الى البطء وهكذا تلاحظ النسبة

فهذه عشر مقولات وهى الجوهر والكيف والكم والاضافة والفعل والانفعال والمتى والاين والملك والوضع وانما قصد الفلاسفة بها معرفة هذه المادة وصفاتها بطريق الحصر الوجودى وانما تتعلق الحواس بالكيفيات المحسوسات وقد يتبعها غيرها

واذ فرغنا من الكلام على صفات المادة فلنشرع الآن فى كيفية وصولها الى حواسنا ولنشرح أعمال الباصرة فنقول :

علمت ان الصفات التى تحس عشرة فيظهر الجسم المرئى بشكله وابعاده الثلاثة ، ومن العجيب أن الضوء يحمل هذه الصور والأشكال مجردة عن مادتها فيتكيف بها بدل موادها فتراه يحمل جميع مواد صور ما نراه . وياليت شعرى كيف يتكيف الضوء بما لا يعد من الصور المزدحمة فيه و يوصلها الى الابصار ولكن لاعجب فى ذلك فان الهواء الذى هو أقل منه لطفا يحمل مالا يحصى من الأصوات المختلفة و يميزها فكيف بهو وهو أرق وألطف وأعجب ولذلك تراه اختص بالصور نفسها

أما الهواء فلم يأت الا بالحروف المعبرة عن تلك الصور ففرق بينهما فالضوء كالآلات الفوتوغرافية والهواء كالفونجراف فالأول مظهر لصور الأشياء والثانى معبر عنها بألفاظ والضوء يقرب فعله من فعل المخيلة التى تزدحم الصور فيها ولا يختلط بعضها ببعض فتأمل كيف كان الشئ كلما رق ولطف كان أوضح فى فعله وأشرف وكلما قرب من الغلظ ضعف ايضاحه ووضوحه فالهواء حمل الأصوات وهى بلا ريب أضعف تعبيراً عن الأجسام من صورها المنقولة بنفسها فى الضوء داخلة فى الأعين مرسومة فى الدماغ فتدركها النفس

ولعمرى كم من الفرق بين من يعبر عن الشئ وهو الهواء و بين من يحضره بنفسه

وهو الضياء ، ولعلك من هذا تعلم كيف تكون حال ما هو أرق من هذا وهي عقولنا ونفوسنا ومن هو ألطف منها وهو مبدع الكون وملائكته (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

ولقد علمت من هذا ان العائق عن الوضوح هي كثافة الأجسام فالقوة اللامسة والذائقة لا تدركان الا المجاور لها فتتكيفان بكيفيته ولا تشعران بها وتنتقل في الاعصاب حتى يحس بها المخ وأرق منهما الشامة

وقد علمت فعل السمع والبصر وهو انما يدرك بواسطة الضوء الذي ليس بجسم فكيف عقولنا وكيف من يعلو عليها فان هذه ليست بأجسام إذ لم تبق مرتبة بعد الضوء إلا وجود مجرد عن المادة واسع الاحاطة ومنه نفهم معنى القدوس والمنزه وكيف أحاط بالكائنات علماً إذ الذي علمناه بالمشاهدة أن المادة هي العائقة فاذا لم تكن مادة حضر كل معلوم لم يعقه عائق ثم تصور هذا صعب علينا جداً مادمنا في جلابيب المواد فاذا تخلينا منها كنا أقرب الى العلم بذلك

ثم اننا اخترنا في الأبصار مذهب علماء الطبيعة وهو أنه بالانطباع كما أوضحناه لامذهب الرياضيين إذ قالوا أنه بالشعاع الخارج على هيئة مخروط قاعدته على الجسم المرئي وقمته في العين الباصرة ولهم في ذلك أراء كثيرة فلا ثمرة في الاطالة بذكرها والانطباع الذي إخترناه مذهب ارسطو والشيخ الرئيس ابن سينا وفلاسفة الاسلام وقالوا إن مقابلة المبصرات للباصرة تفيد استعداداً لتفيض به صورته على الجليدية ولا يكفي فيه الانطباع في الجليدية وإلا لرأى شيئاً واحداً شيئين لانطباع صورته في جليدتي العينين وإذن لابد من تأدي الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه إلى الحس المشترك ولم يريدوا من تأدي الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه الى الحس المشترك انتقال العرض الذي هو الصورة إذ لا ينتقل العرض وانما أرادوا أن انطباعها في الجليدية معد لفيضانها على الملتقى وهو معد لفيضانها على الحس المشترك كما كان

الضوء بين الجسم والعين معداً أيضاً وقس على سير الضوء سائر المحسوسات بالحواس الخمس فى الأعصاب حتى تحس بها النفس فهى أشبه بالكهرباء أو الذر تسرى من جزء الى جزء وليس المعنى أن ما كان فى الجزء الأول انتقل الى الثانى بل هى استعدادات حاصلة بالمجاورة وهكذا شأن عالم اللطائف الذى منه التعليم فعلم المعلم لم ينتقل عنه إلى التلميذ و إنما تعليمه جعل فى المتعلم استعدادا لقبول فيضان الصورة التى عند المعلم نظيرها

الحس المشترك

فاذا شعرت النفس بهذه المحسوسات الخمس كلها اجتمعت فى قوة واحدة لا يهمنا مكانها وانما يهمنا فعلها تسمى الحس المشترك يزعم الأقدمون انها فى مقدم الدماغ وماهى إلا كرئيس أرسل رسلا ووكل كلا بجهة من أطراف بلاده ليأتى بأخبارهم حتى إذا اجتمعت عنده الأخبار رصدها فى دفاتر الوارد ثم أودعها مخازنه حتى إذا حضر الحاكم الأكبر فيها فصل فى قضاياها وتوضيحه ان كل حاسة لها عالم يخصها . فللعين الألوان وللأذن الأصوات وللشم المشمومات وللفم المذوقات وللحس الملموسات

فاذا أبصرنا سرابا وسط النهار رأيناه أبيض كالماء فهذه الحاسة أدت وظيفتها وهى رؤية اللون والحس المشترك يودعها فى المخيلة — وهى ترفعها إلى العقل فان حكم بأنه ماء فقد ضل لأنه لايجوز له الحكم إلا إذا شهدت حاسة أخرى وهى الذوق هنا فحينذاك يحكم بأنه ماء ، وهكذا إذا نظرنا هيئة رمانة صناعية فلا نحكم بأنها رمانة حقيقية إلا باستعمال حاسة أخرى كالذوق حتى نحكم بذلك . ثم ان تكرار المشاهدة بحاستين شيئاً واحداً مراراً يوجب الاستغناء باحداهما عن الأخرى ، فاذا رأى أى حيوان نباتاً وأكل منه فوجد طعمه لذيذاً ثم نظره كرة أخرى فلولا الحس المشترك الذى اجتمع فيه الذوق والمنظر لما عرف الحيوان ان هذا الأخضر هو اللذيذ بعينه .

فمن رحمته تعالى أن خلق هذه القوة الرئيسية تجتمع الأخبار عندها بهيئة غريبة ويتصرف الانسان والحيوان فى شؤونه باعانتها .

فالحواس الخمس كأنها خمسة أنهر فى حوض واحد فهذا الحوض مخدوم وهى خادمة فهو أجل منها قدراً إذ المخدوم أشرف من الخادم والعالم بخمس فنون أفضل من العالم بفن واحد على ان الحواس لاعلم لها وانما هى موصلات لصاحب الحس كما علمت من قبل فهو العالم وحده ثم هذه الصور تخزن فى الخيال

المخيلة او المصورة

أفعالها عجيبة فانها تخزن فيها الصور إلى وقت الحاجة من كل ما أحس به الانسان ومن العجيب انك كما أحسست به تراه بشكله بعينه مجسما واضحاً فيها ، فاذا أبصرت قصراً منيفاً أو نهراً جارياً أو بستاناً زاهراً وأغمضت عينيك رأيته واضحاً فيها ، وإنما الفرق بينه و بين الحواس الظاهرة انها لاتشاهد إلا بعلاقة بينها و بين المحسوسات فاذ انقطعت العلائق كالهواء والضوء بأن ضمت الأجفان أو سدت الآذان فلا إبصار ولا سمع ، أما هذه القوة فانها تشاهدما فيها بوضوح بشرط قطع العلائق ولكن الصفات بدلت بأمثالها قطعاً إذ خضرة البستان فى الخيال ليست هى التى فى النبات وانما هى مثلها وعلى صورتها ومن نوعها فقط فهذا فيه نوع الصفات لاهى

فيالبت شعرى كيف تسع هذه القوة عالم السموات والأرض وصورها المختلفة المجتمعة فيها وكيف يوضع الكبير فى الصغير

قد أجمع الحكماء على عدم تداخل الأجسام فلو كانت هذه القوة جسما فكيف تسع هذه الأجسام كلها . ينسى الانسان الشىء مدة طويلة حتى إذا أراد أن يتذكره كرة أخرى أحضره من هذه المخيلة ولولا حضوره عنده ماتذكره فهذه القوة :

(١) تقبل الصور عن الحس المشترك

(٢) تحفظها عندها لوقت مسيس الحاجة اليها

(٣) تحلل وتركب مادامت الحواس مشتغلة بالعالم الخارجى فهى ترسم مايرد عليها فاذا ركدت الحواس أخذت المخيلة فى النظر فيما عندها من الصور فتحلل تارة وتركب

أخرى اما صدقا واما كذباً فان كان تخيلها لقصد صحيح كتخيل النجارين وعلماء البلاغة باختراع صور جميلة فى هذين الفنين وكاختراع المصورين والنقاشين وهكذا جميع علماء الفنون الجميلة فهذا تخيل صحيح وهو منشأ الاختراعات والروايات والتآليف والصناعات وذلك يكون تحت اشارة القوة المفكرة فان أطلقت المفكرة لها العنان أخذت تحلل وتركب كالهازلين والمخرفين فتأتى بصورة انسان عليه رأس جمل أو بالعكس

(٤) ثم هى كما تحلل وتركب تضرب الأمثال و بيانه انها تصور الشىء بصورته تارة وتمثله بصورة غيره تارة أخرى ولذلك نرى النائم يتخيل أخاه فى صورة صديقه والعدو فى صورة الصديق و بالعكس .

هذه أعمال القوة المخيلة فى الصور المخزونة عندها

(١) ولا تقتصر على ذلك بل تمثل مزاج الانسان وأخلاقه ومعقولاته

(٢) فاذا كان المزاج حاراً فربما يتخيل النائم انه فى الشمس قرب نار . وتأتى بالمعقول فى صورة المحسوس الذى اعتادت عليه فلا تترك شيئاً من المحسوسات أو المعقولات إلا وترجعها إليه

(٣) وتمثل الأخلاق فيرى الغضوب انه ينازع الأقران والشهوانى انه يتصرف فى شهواته والكريم انه يفرق الأموال .

فانظر كيف ضربت مثل هذه الصفات المعقولة بالجزئيات المحسوسة

(٤) وتمثل المعقول ألا ترى ان العلم يؤتى به فى صورة اللبن . والكليات فى صورة الجزئيات كما إذا تصورنا الرحم وهى الأمر المعقول (القرابة) بصورة انسان يطالب بصلته بين يدى ملك . فهذه تمثل الأمر المعقول بين الناس المستلزم للتعاطف والمودة . هذه هى أعمالها فى التمثيل وهى أربعة كما رأيت

(٥) ومن صفات المخيلة انها سريعة الحركة فتخرج من الكلى إلى الجزئى و بالعكس ومن الكل إلى الجزء ومن الصديق إلى العدو و بالعكس رحمة من الله بعباده ليذكروا

مانسوه فيخرج الانسان من صديقه إلى صديق آخر ثم يذكر منزل ذلك الصديق وينتقل إلى جاره ويذكر قضية له ومنها إلى القاضى ومنه إلى الحكومة ومنها إلى السياسة وهكذا فتكون الأفكار سلسلة واحدة أيا كانت متضادة أو متماثلة أو متجاوزة أو متناسبة ولولا هذه الحكمة العجيبة ماأمكن الانسان أن يكون مدنيا ولم يتذكر مانسيه ولم يعرف معايشه (صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) فهذه خمسة أعمال اجمالا ثمانية تفضيلا المخيلة فأنت ترى من هذا البيان ان أعظم نعمة علينا هى هذه المخيلة ولو نظرت حق النظر لعلمت انها جمعت فيها كل شىء مع ان حقيقتها مجهولة بالكلية

فياليت شعرى ماهذا الذى ليس معروفاً ثم يسع هذا العالم كله فترى المخيلة تسع السموات والأرض وما بينهما وتفصلها واحدة واحدة وان كنت فى شك مما تلونا عليك فاغمض عينيك وفتش على الصور تجد مارأته عيناك وما سمعته أذناك حاضراً فيها بصوره وأشكاله . فان كنت لاتتعجب من هذا فابك على نفسك وعالجها بالآداب والعلوم حتى ترتاض فتصل لادراكه فانه خفى مع ظهوره

هانحن أولاء نصور الكرة الأرضية والسماوية بطريقتين احداهما بالكرات الصناعية المشاهدة فى المدارس والأخرى بالخرائط الجغرافية وكلاهما صور ناقصة فالكرة تكون صغيرة جداً عن الحقيقة والخريطة ليس فيها إلا ظل لاحقيقة له وهو مع ذلك صغير جداً ربما بلغ المقياس فيه واحداً من مليون .

أما هذه المخيلة التى ضل عنا محلها فكيف تسع السموات كلها بشكلها مع صغر جمجمة الرأس وهى شىء صغير جداً على أن جمجمة الرأس لاتسع شيئاً من ذلك كله إذ هى مملوءة مادة دهنية هى المخ وأعصاب موزعة فى الجسم وماء سائلا فلم يبق متسع لرسم نجم صغير فضلا عن السموات والأرض .

ولعلك أيها القارئ بان لك ان نفوسنا شىء غير مادة بالمرة وعرفت انها عالم أوسع من عالم النور الذى ذكرناه لك سابقاً لأن المادة أمامنا قد عجزت كل العجز عن تحمل هذه الرسوم العظيمة بهذا البرهان الحسى الذى أقمناه فى هذا الزمن والعلوم راقية والأمثال مضروبة منها

ثم انظر كيف تدخل هذه الصور العظيمة من حدقة العين مع صغرها فلئن سلمنا هذا البرهان فى المخيلة التى هى ظاهرة من ظواهر النفس فكيف بالحدقة التى هى من أعضاء البدن وما بالنا نراها تسع هذا كله وتدخله إلى المخيلة .

حارت الأفكار فى قدرة هذا المبدع الحكيم . وانى لأذكر لك المحاورة المشهورة بين ابليس وادريس التى ملأت كتب التوحيد وقولهم ان ابليس قال لادريس أيقدر ربنا أن يدخل الدنيا فى قشرة بيضة فقال يقدر أن يدخلها فى سم هذا الخياط وفقأ عينه بالابرة . وأجابوا عن هذا بقولهم ان هذا من المستحيل الذى لاتتعلق به القدرة وانما هو من عجز الممكن عن قبول الايجاد والا فالقدرة لاحجر فيها .

هذا ملخص ما أجابوا به . وأنت أيها الأخ القارىء لكتابى هذا تأمل فى السؤال وما يشير اليه الجواب فان هذه المسئلة من الأشياء المضروبة للناس أمثالا لعلهم يتذكرون فلقد شاهدت أن الحدقة والمخيلة قد وسعتا العلم كله بشكله وهيئته مجرداً عن المادة (ان الله على كل شىء قدير) إذ ليس المراد من العالم إلا خلاصته وشكله ولقد قالوا ان الله يقدر أن يدخله كله فى قشرة البيضة بأن يكبر البيضة أو يصغر العالم وها أنت ذا شاهدت أن العين والمخيلة بقيتا على حالهما ودخل فيهما العالم بحاله جملة واحدة فلا العالم صغر ولا محل الرسم كبر وانظر كيف قالوا فى هذا المثال انه فقأ عينه فتأمل كيف أشار الى ان العين هى نفس جواب السؤال كأنه يقول ان عينك ومخيلتك فيهما الجواب

هذا ما خطر بنفسى عند كتابة هذا الموضوع والذى انقدح فى نفسى أنها ضرب أمثال للناس ثم تنوقلت فى الكتب على انها حقيقية مع أن أصل الواضع لم يرد به إلا تنبيه العقول والتأمل ويظهر أنه حصل فيها تحريف وتغيير وتبديل وفى نسبتها الى سيدنا إدريس دلالة على أنها قديمة الوضع من وضع بنى اسرائيل الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج وكثر النقل عن موضوعاتهم ورواياتهم فى كتب المفسرين على أنها مواعظ يراد غاياتها لا حقائقها وهذا أمر يعلمه

رسولنا صلى الله عليه وسلم ولكن شأن الأمثال إذا تداولت عليها الأيام ان يظن أنها حقائق .

ولعلك تقول لم لم توضح فى كتب التوحيد قلنا أن العقول لا تحتمل أن المتخيل يقال له موجود وانما يعرفه من ارتاض بالعلوم

هذه الصور المتخيلة يصدق عليها أنها موجودة وأنها معدومة وانها متوسطة بين الموجودة والمعدومة إذ فيها إمارات الأحوال الثلاث فلعدم الجرم ربما يتوهم العدم ولوجود الصورة يظن الوجود ولتعارضهما يقال لاموجود ولا معدوم . وما أقدر هذه القوة على الأعمال فانظر كيف لطفت الأجسام الكثيفة ووضعتها فى أعلى بعد وان كانت فى أسفل واضاءتها بعد الاظلام فى قوله تعالى (انى رأيتُ أحدَ عشرَ كوْكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهُم لى ساجدين) ثم أبرزت المعقول فى صورة المحسوس والمعقول هو التعظيم والمحسوس هو السجود وكل ما ذكرناه فى هذا المقام من عجائب المخيلة والى هنا قد ذكرنا قوتى الحس المشترك والمخيلة التى ذكرنا لها هذه الأعمال كلها ولها غير ذلك من الأعمال فهى تدرك المعانى الجزئية كالعداوة بين الذئب والشاة مثلا هذا ما يظهر من كلام أبى نصر الفارابى فى آراء أهل المدنية الفاضلة وكتاب اخوان الصفاء أما كلام غيرهما من العلماء فانهم يجعلون القوى خمساً وهى الحس المشترك والخيال وليس له وظيفة إلا حفظ الصور والواهمة ولها حفظ المعانى المدركات بين الصور والحافظة تحفظ المعانى الصادرة عما قبلها والمتصرفة تتصرف فى تلك الصور والمعانى فان اتبعت العقل فهى مفكرة أو الوهم فهى متخيلة هذا ونحن لايهمنا كثرة الأسماء والألقاب وانما المهم هو معرفة ما فيها من الغرائب وها أنت ذا قد عرفت المذهبين من باب الاحاطة فلندع الاصطلاحات جانباً ولنذكر القوة العاقلة

القوة العاقلة

اعلم أن جميع ما ذكرنا من القوى الباطنة والحواس الخمس الظاهرة خدم للقوة العاقلة فهى التى تستنتج من تلك الصور المخزونة والمعانى المدركة ومركباتها كليات معقولة تارة لتدبير البدن وهو العقل العملى وتارة لتكميل قوتها بالمعارف والعلوم وهو العقل النظرى

قال الطوسى فى شرح الاشارات ، فالعقل العملى هو إدراك كل مستنبط من مقدمات كلية أولية أو تجريبية أوذائعة شائعة أوظنية يحكم بها العقل النظرى و يستعملها العقل العملى فى تحصيل ذلك ارأى الكلى من غير أن يختص بجزئى دون غيره والعقل العملى يستعين بالنظرى فى ذلك ثم أنه ينتقل من ذلك باستعمال مقدمات جزئية أو محسوسة الى الرأى الجزئى الحاصل فيعمل بحسبه و يحصل بعمله مقاصده فى معاشه ومعاده ، أما العقل النظرى فاعلم أن له ست درجات بعضها فوق بعض ولكل درجة منها درجات كثيرة لايحصى عددها إلا مبدعها

ولنتبع درجات الانسان من صباه إلى بلوغه النهاية من العلم ونسمى كل حال من أحواله باسم فاذا نظرنا إليه فى أول ولادته لم نجد عنده الاستعداد لفهم الكليات المستنتجة من الجزئيات لمعرفة الحيوان والانسان والنار والماء وهكذا من الأشياء المحيطة فعند عدم هذا يسمى عقله عقلا هيولانيا أى ماديا لم يرتسم فيه شىء من أنواع الصور العقلية فكأنه مادة خالية من الصور وان كان جميع الحكماء أجمعوا على عدم وجود مادة تخلو من الصورة أما العقل فها هو ذا خلا من الصور العقلية ولعلك تقول أنه يحس و يتخيل كما تقدم نقول ذلك ادراك قواه لا ادراكه هو فان الادراك المتقدم للجزئيات لا للكليات . فان ميز بين الأشياء كما ذكرنا فهو العقل بالملكه وهذا يكون عند الفطام ونحوه إلى سن التمييز

ثم ترتقى عن ذلك وتحصل لها الاستنتاجات وتحصل النتائج بالبراهين العقلية وهى القوة الفكرية التى تحصل المعلومات بالمشقة والتعب فى استخراج المجهولات كما

يحصل للتلاميذ فى علوم الحساب والهندسة والجبر . فإذا استكملت هذه القوة وتمت جدا حصل عنها قوة أرقى منها وهى الحدس وهى سرعة حصول النتائج بحضور الحدود الوسطى بلا مشقة كما كان فى الفكر كما يحصل للمدربين على العلوم والسياسات مع استعداد فيهم من الفطرة معين على ذلك . وهؤلاء قليل وأقل منهم من يترقى عنهم فيصير ذا قوة قدسية إذ هى صافية تكاد تضيء . والعلم المشرق عليها عقل مستفاد من المبدأ الفياض بالنور على الناس واجتماعهما معا عقل بالفعل . فهذه سبع مراتب . العقل الهيولانى

العقل بالملكة . الفكر . الحدس . القوة القدسية . العقل المستفاد . العقل بالفعل

ولنضرب مثلا لهذه الدرجات السبع بالمشاهد أمامنا فنرى أن العقل الهيولانى عند الطفل كالمشكاة وهى الكوة فى البيت المسدودة من الخارج فانها تقبل النور بدرجات مختلفة حسب مافيها من الهواء وصقالة حيطانها وعدمها والعقل بالملكة كالزجاج فانه أشف من الهواء فى الكوة ومن حيطانها وأكثر قبولا للانارة منهما : والقوة الفكرية التى هى أرقى منهما كشجرة الزيتون إذ فيها زيت مستعد لظهور النور فيه ولكنه محتاج للنصب والتعب فى اعتصاره واستخراجه ، والحدس كالزيت إذ هو أقرب لقبول ظهور النور من شجرة الزيتون وهما جميعا يولدان النور بخلاف المشكاة والزجاجة فليس فيهما قوة لاخراج النور منهما وانما هما قابلان لاشراقه عليهما فتفطن للفرق بين الجميع والقوة القدسية كالزيت الشفاف الذى يكاد يضيء ولو لم تمسه نار . والعقل المستفاد كنور على نور فانه علم أشرق على هذه النفس القدسية واجتماع هذين النورين يسمى عقلا بالفعل وهو كالمصباح صار مضيئاً بنفسه . وفى التحقيق إن الثلاثة الأخيرة مرتبة واحدة وبهذا تكون المراتب خمساً فقط .

إذا فهمت ماتلوناه عليك عرفت ماأشير إليه الآن وهو قوله عز وجل (اللهُ نورُ السَّمَوَاتِ والأرضِ مَثَلُ نُورِهِ) الفائض على الناس من العقول والعلوم (كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصباحٌ المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يوقدُ مِن شجرةٍ

مُبارَكةٍ زَيتُونةٍ لاشَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ) اشارة إلى الاعتدال الغريب (يكادُ زَيْتُها يضيء ولولَمْ تمسسْهُ نَارٌ نورٌ على نورٍ يهدِى اللهُ لنورِهِ منْ يشاء ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ واللهُ بكلِّ شيءٍعليم) فتأمل هذه الآية كيف جمعت فى نظمها من المشاهد أمامنا ماينطبق على درجات العقول فى النوع الانسانى وماستخرجه الفلاسفة من المباحث وكيف تناسب المعقول والمحسوس وبقى هنا شيء هو : أنه ذكر النار وهى توقد بها المصابيح ولعلك تتذكر ماقلناه قريبا ان العقول البشرية لاتأتى لها العلوم إلا من مبدأ يشرق العلوم عليها يناسبها كما أن الكواكب مبدأ يشرق النور المشاهد على الأبصار المناسب لها وقد أوضحناه فى أول الكلام فى هذا الباب وهو علم النفس بما لامزيد عليه .

فهذه النار اشارة إلى موجود لانراه ولا نسمعه ولا نحس به ولا نشمه ولا تذوقه ترفع عن ادراك الأبصار (لاتدركهُ الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ) عجزت الأبصار عن ادراكه لأنه يناسب قوة أرقى من قوتها كما قدمنا

فلا قوة للابصار الا على الأضواء الظاهرة وكيف لها أن تتخطى مراتبها وتعلو فتدرك مايدرك العقل كلا ثم كلا وهو يدرك الأبصار إذ هو مسيطر على العقل قطعا بمد له والعقل مسيطر على آلاته فقد علا على الجميع بالعلم (وهواللطيف الخبير) فلاطفه جدا ودقته عن الأضواء المشاهدة لم تدركه الأبصار فهو برهان عقلى للقضية الأولى (الخبير) لأنه استعلى على هذه القوى كما قدمنا فهو برهان للقضية الثانية فتأمل هذه التمثيلات الظاهرة ثم الحجج الباهرة

فالمدد للعقول المخرج لها عن البساطة إلى المعقولات فى الدرجات المختلفة موجود لانراه يعبر عنه بالملائكة والعالم الأعلى وكلها نفوس قدسية شرفت على المادة أقرب إلى اشراق النور عليها من المبدع الحكيم منا . فكل علم حصل فى قلوبنا فانه بواسطة عالم ينزله إلينا على حسب استعدادنا قلة وكثرة . وكل حادث على نفوسنا من المشاغل الدنيوية مؤخر لهذه النفس عن الكمال الذى اختص به (الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالوحى والرؤيا ونحو ذلك)

واعلم أن النوع الانسانى على وجه العموم له اتصال بعالم الجمال المشرق على هذه النفوس البشرية تراهم يقتبسون المغيبات فى المنام وهم كثير جداً . ومنهم من تحتاج رؤياه إلى تأويل ومنهم من لا تحتاج وهذا قد يقوى فيرى فى اليقظة ما يراه فى المنام ثم بالحواس وهى مرتبة فوق مرتبة المنام وهؤلاء هم الكهنة ومن نحا نحوهم من كل من يستعين بشىء من الخارج كالمندل وضرب الحصى والنظر فى الزجاج فى الشمس وتحضير الأرواح والتنويم المغناطيسى وبالجملة كل ما يفعله الانسان ويشغل الحواس عن النفس حتى تتصل بعالمها وتخبر بالمغيب الذى هو شغلها الحقيقى ومنبعها الأصلى فالكهان قسمان قسم يحتاج الى استعانة وقسم لا يحتاج وهذا الثانى هو ما كان لكهان العرب مثل سطيح وغيره ولكنهم لا ينظرون بكهاناتهم الا فى الأمور الجزئيات أما الكليات فمعرفتهم بها قليلة جداً كالرؤيا ويحصل عندهم كثير من الغلط وقلب الحقائق فيختلط الصادق بالكاذب كما فى الرؤيا فقد اختلط الصادق بالكاذب فيهما . وذلك لأن المخيلة تحلل وتركب فى المنام واليقظة صدقا وكذباً كما علمت فى تعبيرها عن المزاج والأخلاق . وغيرها فيما لديها من الصور .

يشير لذلك ابن صياد وقول النبى صلى الله عليه وسلم له كيف يأتيك ؟ فقال : يأتينى صادق وكاذب . فقال : خلط عليك

وهؤلاء قوتهم المخيلة قوية حتى تتحمل ما يرد عليها من الحواس وما يرد عليها من العالم الأعلى وهى عند الكهان أقوى منها عند عامة الناس إذ لا يقوون إلا على اختلاس المغيبات وقت المنام فيتصور المعقول بصورة المحسوس بهيئة عجيبة جدا

القوة التى هى أرقى من هذين قوة الأنبياء فانهم يرون فى اليقظة وفى المنام وأول الوحى الرؤيا الصادقة ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يتمثل له الملك بشراً سوياً فى اليقظة وأخبار الله للأنبياء على ثلاثة أقسام

(١) وحى فى القلب بحيث يعلم أن هذا من عندالله ولا يمكن دفعه(٢)و بروز هذا المصدق به من العقل فيسمع صوته ولا يرى شخصه وهذا هو المعبر عنه بسماع الملك

(٣) وظهوره الى البصر وهو رؤية الملك يكلمه و إليه الاشارة بقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) هى المرتبة الأولى (أو من وراء حجاب) هى المرتبة الثانية (أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء) وهى المرتبة الثالثة (إنه عليم حكيم) والى هنا تمت مراتب التعلم من العالم الأعلى وقد علمت أنه كله سبعة أقسام للمنام مرتبتان وللكهانة مرتبتان وللنبوة ثلاث مراتب فهذه سبعة كاملة . وتأمل كيف كانت النبوة نهاية للقوتين ثم كيف كان البشر كلهم عندهم هاتان القوتان

ولعمرك لولا قوة مودعة فى نوع البشر وهى الرؤيا الصادقة ما صدقوا الأنبياء فما من إنسان إلا ورأى رؤيا صادقة أو سمع بمن رآها

اقسام العلماء

ولما اختلف الناس فى أخذ العلوم من بابى الحواس والعالم القدسى رأيت العلماء قسمين قسم أخذوا علومهم عن الفكر والنظر فان تبعوا الأنبياء فهم المتكلمون وإن لم يتبعوهم فهم الفلاسفة وقسم أخذوا العلوم من جهة إشراق النفس فان تبعوا الأنبياء فهم الصوفية . أو لم يتبعوهم فهم الفلاسفة الاشراقيون فهذه أربع فرق لا يخرج أحد من العلماء عنها .

أقسام العلوم

والعلوم ستة أقسام ثلاثة نظرية وثلاثة عملية فالنظرية إما أن تحتاج الى المادة فى الخارج والذهن وهى الطبيعيات ويدخل تحتها علوم كثيرة من الطب والتاريخ الطبيعى والبيطرة والبيذرة وعلم التشريح وغيرها و إما أن تحتاج الى المادة فى الخارج فقط لا فى الذهن وهى العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك فانه لا توجد المقادير ولا الأعداد إلا فى مقدرات ومعدودات معينة ولكنها فى الذهن لا تحتاج إلا إلى تصور مطلق مادة لا مادة مخصوصة. و إما أن لا تحتاج إلى المادة لا فى الخارج ولا فى الذهن

وهى علم ما وراء الطبيعة من الخالق وصفاته والملائكة إذ هذه موجودة بلا مادة لما علمت فى البراهين التى قدمناها و يتصورها العقل بلا مادة

و إذا كانت العلوم الرياضية لم تحتج الى المادة فى الذهن فكيف بالمجردات فهى لا تحتاج إليها من باب أولى

وهذه الأقسام الثلاث كالتقسيم الذى قدمناه فى الأجسام والأضواء وعالم العقل فالأجسام كعلم الطبيعة والأضواء كعلم الرياضة وعالم العقل كالعلم الالهى فاجتمع التقسيمان فى لفظه واحدة لأن البراهين الصادقة ترجع إلى أمر واحد كلها فهذه أقسام العلوم النظرية .

وهناك علوم عملية وهى سياسة الانسان لنفسه وسياسته لأهل بيته وسياسته لأهل مدينته وهذه تكلفت بها الشريعة الاسلامية وعلوم الأخلاق والسياسات المستنتجات من التجارب فهذه ستة أقسام وتحتها فروع كثيرة تعرف بالاطلاع والمزاولة وإلى هنا تم الكلام على أقسام المعرفة الثلاثة وهى الحواس والقوى الباطنة والعقل

التقسيم الحديث

هذا هو التقسيم الذى اعتبره المتقدمون ، ولقد عرف الغربيون هذه العلوم لما نقلوها وأخذ (كانت) يفكر فيها فاعتبر القوى العقلية محلا للتقسيم وجعل المدار فيها على القوة المخيلة والقوة الذاكرة والقوة العاقلة فللقوة المخيلة جميع العلوم الأدبية وما ينحو نحوها كالشعر والنقش والتصوير وما أشبه ذلك لأن هذه منبعها الخيال و يدخل فى هذا علم البيان البديع

والشعر ثلاثة أقسام قصصى وتمثيلى وغنائى ، وللقوة الذاكرة علم التاريخ والتاريخ قسمان أثرى و بشرى والأثرى ماجاء فى الديانات والبشرى تاريخ الأمم وهو المشهور فى الكتب والعلوم الرياضية والطبيعية وهو المعمول به الآن حتى ان كل علم له تاريخ خاص به وللقوة العاقلة (١) علم الفلسفة وهو الباحث عن نظام

الطبيعة (٢) ومعرفة مافوق الطبيعة من العالم الأعلى والبحث عن الله عز وجل وعن النفوس المجردة (٣) ومعرفة نفس الانسان ويدخل فى ذلك علم النفس ثم المنطق ثم علم الجمال والقانون ونظام المنزل ونظام علم الأخلاق وهكذا

وهذا التقسيم يدخل فيه فروع جميع العلوم كما ان التقسيم الأول كذلك

ولأذكر لك أيها الذكى نبذة صالحة من مجمل علم المنطق فأقول جاء فى المجلد الخامس عشر من تفسير الجواهر فى سورة الروم عن آية (فِطْرَةَ الله التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) تحت عنوان (اللطيفة الثالثة فى العلوم المنطقية)

اعلم أن الله عز وجل أعطى كل شىء خلقه فهدى ، فلكل حيوان فطرته الخاصة به بحيث كانت تلك الفطرة كافلة بشؤونه العامة والخاصة . فللنحل فطرة بها بنى بيوته وملأها بالعسل وربى ذريته . وللعنكبوت نسيجها الخاص بها الذى يكون فيه مأواه وبه يصطاد الذباب وغيره من الحشرات وهكذا مما ظهر فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة . هكذا الانسان له فطرة بها يهتدى لثدى أمه ويمسكه ويمتصه ويبكى عند الجوع ويضحك عند الفرح . وهكذا تسوقه غريزته وفطرته إلى قيامه بشؤونه وأعماله جميعها فيستعمل سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه . كل ذلك بفطرته بلامعلم يعلمه ولامرشد يرشده . وقد وجد الناس فى عصرنا انهم عثروا فى الآثار المتوغلة فى القدم أن الأمم جميعها لها معابد وعبادات وصلوات وتوجهات إلى المعبود . واختلافهم انما هو فى أوصافه وعدده ولكنهم جميعاً متفقون على وجوده . إذن الاتجاه إلى موجود له سموّ وعلوّ مسلم به فى الفطرة وهذا معنى قوله تعالى (فِطْرَةَ الله التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) فان هذا النوع الانسانى قد اتفق تاريخ أممه على انهم جميعاً كانوا يتسابقون إلى الاستعانة بالموجود الأسمى . وفطرة الناس منحصرة فى (أمرين اثنين) لاثالث لهما (الأمر الأول) إنماء الجسم والمحافظة على النسل فلا رجل ولا امرأة إلا وأبهما المحافظة على بقاء أجسامهما

وتربية ذريتهما . هذه فطرة فيهما ولولاها لخلت الأرض من نوع الانسان وهكذا كل حيوان (الأمر الثانى) المحافظة على اسعاد الروح وآية ذلك ماتراه من حفظ العرض والخوف من الشماتة والعار والخزى والذل وما أشبه ذلك وهكذا ماذكرناه من توجهها لمبدع الكون واعترافها به وعموم ذلك فى كل زمان ومكان قديماً وحديثاً حتى ان الحيوانات عند حدوث الملمات ترفع وجوهها إلى أعلى دلالة على أنها عرفت أن هناك مصدراً لوجودها تستغيث به ليس فى هذه الأرض ، إذن الفطرة تشمل أعمال الروح وأعمال الجسم اجمالا .

هذه الفطرة كما ألهمت الصبى التقام ثدى أمه حفزت المراهق والشاب والشيخ أن يتعاطوا الطعام والشراب والزرع والتجارة وجميع أعمال الحياة ، فالناس عاملون فى الدنيا لطلب الرزق بفطرتهم كما تعمل الطير سواء بسواء ، ولقد تجد أمة كالأمة المصرية والعراقية نهراً يجرى كالنيل والفرات فيستعملونه بأن يسقوا أرضهم ويزرعوها وهنا يساعد تلك الفطرة مدربون ومعلمون فيتعلم الكبار الصغار كيف يحرثون الأرض وكيف يبذرون البذر وهذا بعينه فطرة بعض الطير تساعد أولادها فى غدوها ورواحها وتكون قدوة لها ، وهذه الفطرة كافية للأمم فى حال بداوتها وفى حال طفوليتها فتكون أعمالهم قليلة وطرق كسبهم أقرب إلى البساطة وكلما كثر عددهم وازداد جمعهم سمت فيهم ملكات التفكير وازدادت طرق الأعمال فاحتاجوا إلى إبراز ما كمن فى فطرهم من فنون العلوم كالهندسة والحساب والجبر ورصدوا النجوم ليعرفوا طرق البر والبحر، هنالك يستخرجون من الأرض والعوالم المحيطة بهم كنوزاً كانت مخبوءة فيها على مقدار استخراج القوى الكامنة فى فطرهم إلى حيز الوجود وذلك بالعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها (وبيانه) ان الانسان يسمع ويبصر المسموعات والمبصرات ولكل حاسة محسوسات خاصة ، فالألوان والبعد والقرب والشكل والقدر والسطح وما أشبه ذلك تعرف بالبصر وأنواع الأصوات تعرف بالسمع . فاذا كان المحسوس لايعرف إلا بحاسة واحدة وكانت الحاسة سليمة من الآفات فهذه الحاسة صادقة فى حكمها عليه ، ألا ترى

أن الصوت انما يعرف بالسمع ، أما اللون والشكل مثلا فالسمع لايدركهما هكذا الصوت لايدركه البصر ، إذن هذان كل واحد منهما مختص بحاسة لايشاركها سواها فى إدراكه . إذن يصدق السمع فى المسموع والبصر فيما اختص به من الألوان ونحوها

﴿ التفاحة واللبن ﴾

فأما أمثال التفاح واللبن فانهما لايختصان بحاسة واحدة . فاذن لانصدق العين فى حكمها على التفاحة ولا فى حكمها على اللبن ، وبيانه أن الانسان يشاهد التفاحة فيحكم عادة بأنها تفاحة وقد يكون مخطئاً لأننا لو صنعنا تفاحة من الكافور ولوّناها بلون التفاح ورأيناها ثم شممناها لحكمنا فى أول الأمر خطأ انها تفاحة مع ان هناك حاستين أخريين يجب أن تشهدا وهما حاسة الذوق وحاسة اللمس فان حكمتا فيها و إلافلا. هكذا إذا صنعنا مايشبه اللبن كالدقيق المخلوط بالماء فانعين تراه ويخيل للعقل انه لبن فلابد من حكم القوة الذائقة مع العين ، فهنا (ثلاث مراتب فى الحكم) حكم بحاسة واحدة وحكم بحاستين وحكم بثلاث حواس . فاذا خالفنا هذه القواعد فان العقل قد يحكم خطأ . ألا ترى انه يرى السراب فى وسط النهار فيحكم بأنه ماء والعين صادقة فى أنها رأت لون الماء وهيئته فحكم العقل إذن بأنه ماء خطأ لأن الماء لايعرف بحاسة البصر وحده فلابد من انضمام حاسة اللمس اليه ليعرف انه سائل وحاسة الذوق ليعرف انه ماء وما دام ذلك متعذراً على من بالصحراء فحكمه معرّض للخطأ . هذا مجمل الأدلة وهى فى أحكام الحواس فى محسوساتها

﴿ مقاييس العقول التى تقيس بها المعانى فتعرف صادقها وكاذبها ﴾

للعقول الانسانية المنبعثة من الفطرة (مقاييس خمسة) مقياس يحكم حكما قاطعاً . ومقياس يحكم حكما ظنياً . ومقياس يقيس ويكون أضعف حكما مما قبله . وقياس يكون أقرب إلى الوهم . وقياس قصد أن يكون حكمه خطأ . فأما المقياس الأول فهو البرهان . وأما الثانى فهو الجدل . وأما الثالث فهو الخطابة . وأما الرابع فهو الشعر . وأما الخامس

فهو السفسطة . أما البرهان فذلك هو المبنى على ماشهدت به الفطرة فى مبادئ أمرها بحيث لايختلف فيها ولا يشتبه الناس من جهال وعلماء وأغبياء وأذكياء مثل

(١) أن الواحد نصف الاثنين والكل أعظم من الجزء

(٢) والشيآن المساويان لشيء واحد متساويان

(٣) والنفى والاثبات لايجتمعان

(٤) واذا أضفنا شيئين متساويين لشيئين متساويين كان المجموعان متساويين

(٥) واذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين متساويين كان الباقيان متساويان

(٦) واذا أضفنا شيئين متساويين إلى شيئين غير متساويين كان المجموعان غير متساويين

(٧) واذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين غير متساويين كان الباقيان غير متساويين

(٨) واذا ساوى شيآن نصف الشيء كانا متساويين

(٩) واذا ملأ شيآن حيزاً واحداً على التعاقب كانا متساويين

وهكذا مما ذكر (اقليدس) فى أوائل الهندسة ، وهذه وأمثالها هى المسميات أوليات لأنها تعرف فى أوائل العقول ومثلها المحسوسات المتقدمة على شرط سلامة الحواس واستيفاء الشرائط التى أشرنا اليها . وهكذا ماتصدقه التجربة مثل العقاقير الطبية المسهلة والمخدرة والمنومة والمعطية حرارة أو برودة للجسم ، فهذه متى صدقت تجربتها عدت من المقطوع بها . وهكذا المتواتر الذى شهد به جموع يحكم العقل قطعاً بصدقهم كما نقول فى مصر ان فى الأرض بلاداً تسمى الصين أو اليابان أو فرنسا أو ألمانيا أو استراليا ومكة والمدينة واليمن فهذه نقطع بوجودها وان لم نرها . وهكذا مالاحظناه مراراً وعقلناه مثل أن نرى أن القمر إذا كان مقابلا للشمس امتلأ ضوأ وكلما اقترب منها قل ضوؤه ، ومتى كان مقارنا لها لم يكن له ضوء ، فهذا دلنا على أنه استمد نوره منها لأنه لما قابلها أشرق نورها عليه فلما صار بيننا وبينها فعلا كان وجهه المشرق

فى جهة الشمس لافى جهتنا ثم تكرر هـذا فحكمنا حكما يقينيا كما حكمنا فى المجربات سابقاً . وهكذا نلاحظ فى باطننا آلاماً نسميها جوعاً وآلاماً نسميها عطشاً وأخرى نسميها شبقاً وأخرى نسميها مرضاً وهى كثيرة لاحدّ لها ، ونجد لنا غضباً وحسداً وحقداً ورهبة وحباً وكراهة فهذه يقينيات

فهذه كلها اذا جعلت مقدمات فى أدلتنا اليقينية كانت معينة على صدق النتيجة هذا هو المسمى بالبرهان ويليه فى القوة الجدل

﴿ الجدل والخطابة والسفسطة والشعر ﴾

أما الجدل فهو مايستعمله المتناظران بحيث يورد كل منهما ماينلم الخصم به كالمسلمات والمشهورات كرجال الدين والمذاهب المختلفة فى كل أمة فهؤلاء يكفيهم فى أدلتهم مايوجب الظنّ والترجيح لاغير . وأقل من الجدل الخطابة ، فالخطيب يشوق المستمعين بما يخلب عقولهم فيستعين بالأمثال المشهورة مثلا ويحببهم فيما يريد بالطرق المتوسطة بين الصدق والكذب كالأسلوب الشعرى ، وهناك مايقصد به التحسين والتقبيح . ولقد تكفل بهذا فن البيان بأمثال المجاز والكناية والتشبيه والاستعارة التمثيلية وما أشبه ذلك . فهذه كلها يقصد بها جذب المخاطبين بالصور الجذابة ولا يراعى فيها الحقائق والسامع لها قد يعرف كذبها ولكن لها أثر فى النفس وأدناها كلها المغالطة وهى السفسطة التى يستعملها رجال السياسة وأمثالهم بأن يأتوا بأدلة تشبه الحق وقد أرادوا بها باطلا وقد شبهوها بالدينار فان كان ذهبا خالصاً فهو مثال للبرهان الذى لايخطر ضده بالبال وان كان فيه زغل لايعرفه إلا الحاذقون كان مثالا للجدل وان كان زغله يعرف بسهولة كان مثالا للخطابة وان كان نحاساً كله كان مثالا للمغالطة . وأما الشعر فهو يقصد به التحسين والتقبيح لا البرهان

فهذا كله ملخص من علم المنطق وعلم المنطق ملح العلوم كلها وما ذكرناه هو أحد قسميه المسمى بالتصديق واعلم أن المطلوب علمه

(١) إن كان أمثال هذه الشجرة أو هذه الدواة فهذا لايبرهن عليه ولكن سبيل

العلم اليه انما يكون بالتحليل والتحليل قام به علم الكيمياء ، فترى علم الكيمياء قام بتحليل المواد فعرفت فيحللون الماء والهواء ويفصلون العناصر التى حواها كلاهما فيحكمون حكما قاطعاً

(٢) وان كان نوعا كالانسان فلا سبيل للحكم عليه بالتحليل ولا بالبرهان ولكن بالتعريف وذلك بالحد أو الرسم المعروفين فى المنطق وذلك بالجنس والفصل القريب فى الأول بأن يقال هو حيوان ناطق أو بالجنس وحده أو بالجنس والفصل البعيد فى الثانى

(٣) وان كان المطلوب جنسا فلاحكم عليه بحد ولا بتحليل بل بالقياس كحدوث العالم وكنفع العقاقير وضرها وهكذا فهذه لابد فيها من القياس

(٤) وان كان المطلوب هو تمييز الكليات بعضها من بعض فلاسبيل لها إلا بالتقسيم كمعرفة الفرق بين المادة ومقاديرها وأعراضها المحسوسة من أوصافها المنظورة والمسموعة والمذوقة والملموسة ومن نسبتها إلى غيرها كالابوة والبنوة ومكانها وزمانها وفعلها فى غيرها وانفعالها لغيرها . فهذا كله لايتم إلا بالتقسيم وله فن يسمى (فن المقولات) من علم المنطق وهو أيضا من الفلسفة العامة . واعلم ان المتعلمين فى مدارس العالم قاطبة يستعملون التحليل كما تقدم فى علم الكيمياء بسائر فروعها فهذا يورثهم يقيناً فيما يزاولونه وبه استنتجوا منافع للنوع الانسانى وهذا من فطرة الله التى فطر الناس عليها فاذا رأينا الله فطر الطفل على التقام ثدى أمه وعلى إغماض عينه سريعا إذا أحس ، باقتراب جسم غريب اليها ، نرى الذين يحللون المواد يعرفون حقائقها بفطرتهم غاية الأمر أن الفطرة فى الأول لاتحتاج إلى تعلم لاستخراج ما كمن فى أنفسنا ، وهم أيضاً يقسمون الكلمة إلى (ثلاثة أقسام) اسم وفعل وحرف وهو من أنواع المنطق المتقدمة ، ونراهم أيضاً يقرؤن الهندسة وكلها براهين والبراهين أشرف أنواع القياس ، إذن العلوم التى يدرسها الناس مشحونة بعلم المنطق الذى به استخرج الناس المجهول بواسطة المعلوم وهذا الاستخراج سببه الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فاذا فطر الله الناس على

استعمال الفاكهة التي يروتها في الجبال بلا زرع هكذا فطرهم على أن يستخرجوا من الأرض بالجد والبحث مايوازي مااستعملوه بلا جد ولا نصب ، واذا رأيتهم أجابوا الأنبياء كنبينا صلى الله عليه وسلم إذا أسمعهم دين الفطرة وقرأ لهم القرآن هكذا تراهم استخرجوا بعقولهم وفطنهم من هذا المسموع ومن المعقول الموافق له علوما استبحر بها العمران وارتقت الأمم ، فشجر البادية استعملناه بفطرتنا وشجر حدائقنا استعملناه بعد الجد والنصب بمساعدة فطرتنا والقرآن عرفنا منه حرمة وأد البنات بمجرد سماعه ولكن لانظم الأمم ولا الجماعات على طريق القرآن إلا بجد ونصب وأعمال فكر بمساعدة فطرنا

﴿ مراتب الناس فى الاستدلال ﴾

(١) « مرتبة الصبي » إن الصبيان مطبوعون على القياس والاستدلال وتكون نتائجهم مابين صادقة وكاذبة لعدم اختبارهم ، فاذا رأى الصبي نظيره في مكتب أو طريق حكم بأن له والدين وهذا الحكم صحيح لأنه استدلال بالمعلول على العلة لأن المعلول لابد له من علة

(٢) إذا رأى زوجا وزوجة قال لهما أين ولدكما وهذا الحكم يصدق ويكذب لجواز ألا يكون لهما ولد لأن العلة لاتنتج المعلول إلا إذا استوفت جميع شرائطها والزوجان لايلزم من وجودهما وجود الولد لأنهما يصلحان علة بشرائط خاصة ومتى فقدت لم يصلحا أن يكونا علة

(٣) وهكذا كلما رأى ولداً ظن أن له أخوة كاخوته وداراً وجوعاً وشبعا على حسب مايقوم بنفسه هو فى وقت الاتصاف بذلك ، فان جاع ظن جميع الأولاد جياعا وهكذا إن عطش وعلى ذلك فقس ولا يقلع عن ذلك إلا بعد أن يعقل ويدرك خطأه

(٤) ومتى كبر وأدرك خطأ تلك القضايا وجد فى نفسه بقيتها مثل أن يعتقد أن المطر فى كل بلد حين يكون ببلده وهكذا الحر والبرد والصيف والشتاء وهذا كله خطأ ، ففى الأرض شتاء أيام صيف بلاده وبالعكس وعلى ذلك فقس وذلك يمنعه التعلم

(٥) إن كل نتيجة لابد لها من مقدمتين فأكثر فى كل استدلال منطقى أو هندسى

أو غيرهما وقد تكون المقدمات كثيرة جداً مثل قولهم زوايا المثلث تساوى قائمتين فانها لم تكن إلا بعد اثنين وثلاثين شكلا وقولهم مربع وتر الزاوية القائمة مساو لمربع مجموع الضلعين الآخرين لم يتم إلا بعد (٤٧) شكلا وهذا الشكل عندهم يسمى شكل العروس

(٦) وقد يكتفى فى البرهان بالقليل من المقدمات . مثال ذلك فى الاستدلال على النفس فيقال (كل جسم فهو ذو جهات) ولا جرم أن هذه مقدمة صادقة لاعوج فيها (وليس يمكن الجسم أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة) وهذه مقدمة أيضاً صادقة فى أولية العقول (وكل جسم يتحرك إلى جهة فلعلة ما تحرك) وهذا اثبات للنفس ثم يراد بعد ذلك اثبات انها جوهر لاعرض فيقال (وكل علة محركة للجسم لايخلو من أن تكون حركتها على وتيرة واحدة فى جهة واحدة مثل حركة الثقيل إلى أسفل والخفيف إلى فوق ، فهذه تسمى علة طبيعية ، واما أن تكون حركتها إلى جهات مختلفة وعلى فنون شتى بارادة واختيار مثل حركة الحيوان فتسمى نفسانية) وهذه قسمة عقلية مدركة حساً (وكل علة محركة للجسم بارادة واختيار فهو جوهر) فالنفس إذن جوهر لأن العرض لافعل له

هذا ملخص ماذكره (اخوان الصفا) هنا وأنا أقول أيها الذكى هذه الألفاظ غريبة على هذا الكتاب وقد طال أمدها ولكن الأمر سهل ، فمعنى هذا كله أن الانسان قد يستدل بمقدمات طويلة وكل مقدمة تحتاج لما قبلها وذلك كأدلة الهندسة فهى متصل بعضها ببعض حتى تبلغ المئات ولكنها فى آخر أمرها ترجع إلى مايعرف فى أوائل العقول مثل ماتقدم وقد تكون المقدمات قليلة كأن يقال فى الاستدلال على النفس ان الجسم له جهات ست فلماذا يتحرك إلى جهة دون جهة فلابد من سبب ، فان رأيناه تحرك إلى جهة واحدة على وتيرة واحدة سميناه علة طبيعية ، ومعنى هذا أن الذى حرك هذا الجسم ليس جسما بل هو أمر معنوى وان رأيناه يتحرك إلى جهات مختلفات بارادته واختياره سمينا ذلك المحرك نفسا وذلك كالحيوان والانسان ، ولكن هذه القوة التى سميناها نفسا ربما كانت عرضا أعنى شيأ كاللون والخفة والثقل واذن

يكون تابعاً للجسم لأنه من أوصافه فنقول « وكل شيء يحرك الجسم بالارادة والاختيار لابد أن يكون جوهراً » أى انه ليس عرضا لأن العرض لافعل له و إلا لجاز أن يكون اللون يعقل و يفهم وهكذا الثقل والخفة وهذا تأباه الفطر الانسانية

هذا كله من فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فالاستدلال بالبرهان والمعرفة بالمنطق وتحرى الصدق فى النظريات ، كل هذا من موجبات الفطرة فاذا رأينا قوما يعيشون فى الأكواخ ويكتفون بالصيد ولا يعرفون الحرث ولا القناطر ولا الجسور قلنا هكذا رأينا فى الحيوان أمثال الناس تربى ذريتها بغير وجود آبائها أى إن الحيوانية هناك ناقصة . هكذا الانسانية هنا ناقصة لم تستحكم . واذا رأينا أناسا شقوا الأرض وزرعوها وارتقوا قلنا هكذا رأينا الطير تحضن بيضها وتربى ولدها وهذا كله سميناه فطرة . فالطير تربى وتحضن بيضها بالفطرة كما ان الجراد ترك بيضه وقفص وحده بالفطرة مع نقصهم وآخرون عاشوا بالعلم حرثوا الأرض وزرعوها وشقوا الأنهار ونظموها كما حضنت الطيور البيض وربت أفراخها بالفطرة غاية الأمر أن الفطرة فى الطير والانسان المدنى أكمل من الفطرة فى الانسان الهمجى كما ان الفطرة فى الطير أكمل منها فى الجراد والناموس والذباب . ونسبة الطير الى الآساد والوحوش أبعد جدا من النسبة بين الانسان المتوحش وذى المدنية فى عصرنا الحاضر . إذن هذا الدين الاسلامى — فطرة الله التى فطر الناس عليها — فهو دين المتوحشين لأن الوحشية من الفطرة ودين أصحاب المدن العظيمة لأن المدنية من الفطرة ولا يخرجها عن الفطرة ارتقاؤها كما لم يخرج السباع عن الفطرة ارتقاؤها عن الطيور لأنها تحمل ذريتها وترضعها فضلا عن أمثال الجراد والذباب والناموس التى لا ترى ذريتها أصلا . فهذه الأنعام والسباع من فطرة الله وأهل المدن العظيمة لم يخرجهم عن الفطرة ارتقاؤهم عن الوحشين ، وهذا الدين فيه المواعظ للعامة وفيه البراهين للخاصة إيماء الى ما قلناه ، وفيه عرش بلقيس وملك سليمان كما أن فيه مدح المؤثرين على أنفسهم والقانعين والفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا

مسامرة فى علم الحكماء والفلاسفة

يحكى أن ملكا عظيما من ملوك الهند كان له وزير عالم حكيم وهو مطلع على جهل الملك وعبادة الأصنام وقد مكث ذلك الوزير دهرا طويلا يطلب الفرصة لخطابه الى أن اتفق ان قال له الملك ذات ليلة بعد ما فرغا من النظر فى أمر الرعية وكتب النوبة وتدبير السياسة هل لك أن نخرج الليلة متنكرين لنعرف حال المدينة ونتجسس أحوال الرعية وننظر الى آثار المطر وكيفية هذه البلاد ومصالح العباد وكان من سنة ملوك تلك البلاد أن لا يركب الملك الا فى كل سنة مرة ولا يظهر للرعية إلا يوماً واحداً كل ذلك تعظيما لأمر الملك وسياسة لأمر الرعية فخرجا يطوفان حول المدينة متنكرين فبينما هما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتدا نحوه حتى دنوا منه فاذا هما بمزبلة شبه رابية عظيمة عليها جيف مرمية وسماد طرية منتنة الرائحة واذا فى أسفله ثقبة شبه المغارة واذا فى أقصى داخلها رجل قاعد مشوه الخلقة على دكة قد أصلحها من بين سماد ورماد تلك المزبلة وقد فرش تحته من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة وفى رجليه تُبَّانٌ[1] وعلى رأسه شملة مثل ذلك واذا بحذائه امرأة تشبهه فى الخلقة والتشوه وعليها كسوات شبه درع وخمار ومقنعة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة واذا بين يديهما سراج من خرق فوق آجرة شبه منارة وبجنبه جرة مكسورة فيها دردى كالخل وقد مزجه بيسير من ماء والى جنبه سلة خوص فيها تاقات كرفس وكراث وبيد كل واحد منهما مشربة مكسورة يغترفان من تلك الجرة ويشربانها واذا على فخذه قصبة قد مد عليها خيطا شبه قوس النداف وهو ينقر عليها بقضيب فى يده ويغنى بأبيات غير موزونة خارجة عن الإيقاع واذا به يذكر فى تلك الأبيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وافراط محبته إياها وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة قد مدت عليها قطعة جلد غير مدبوغ جايفة منتنة الرائحة شبه الدف وهى تنقر اذا غنى هو وترقص وتثنى عليه واذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحياه بتاقة من ذلك الكرفس

(١) التبان كرمان سروال صغير يستر العورة

والكراث وهى تثنى عليه بالحسن والجمال كأنه يوسف الصديق وتسميه شاهنشاه ملك الملوك وهو يسميها كديانوية سيدة النساء ويشرب ويثنى عليها ويصفها بالحسن والجمال مايقصر وصف الحور العين فى جنب ذلك واذا شربا سألا الله ألا يعدمهما ماهما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة وأن يبقيهما على تلك الحال أبدا ما بقى الدهر فلما أبصر الملك والوزير ماهما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال ذينك المسكينين ثم قال عند ذلك الملك للوزير ما أظن انى فى طول حياتى وعز سلطانى ونعيم ملكى وأيام شبابى ومجالس لهوى مع تمكنى من شهوتى بلغ منى الفرح واللذة والسرور ما يصفان هذان المسكينان الحقيران الوضران من حالهما ومع هذا كله أظن انه لا يفوتهما هذه الحال كل ليلة ان أرادا لأنه لا يعرض لهما شىء من العوائق التى تعترض لنا من الأشغال المانعة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج فى اطراف المملكة واضطراب النواحى وشغب الجند وطلبهم الأرزاق ومثل النظر فى تظلم الرعية وهمج العامة والنظر فى محاسبة الكتاب وتولية العمال ومثل النظر فى التعازى والتهانى والنظر فى أمر الخاصة واصلاح أمر العامة ومثل النظر فى القصص والتوقيعات وحفظ الخزائن وتفقد الرسل الواردين من الأطرف واكرامهم والتجمل لهم ومثل النظر فى الكتب الواردة من أصحاب الأخبار وكتب أجوبتها وما شا كل هذه من الأشغال المنغصة للعيش المنقصة للذات الموردة للغموم والهموم والأحزان ثم قال الملك ولكنى أظن انه لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا وألبسا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعاينا أحوال ملكنا وشاهدا عز سلطاننا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة مقدار ساعة ثم ردا الى حالهما لما تهنيا بالعيش بعد ذلك ولا وجدا لهذه الحال النكرة هما التى فيها لذة أبدا وصغر فى أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك تذكر ما قال له صاحبه لما شكا اليه اطلب الفرصة وضع الدواء على حيث الداء فان لكل مقام مقالا قال الوزير للملك أخاف أيها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عز سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا

وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما خولنا مغرورين كغرور هذين المسكينين بما هما فيه ونحن محقورون وجميع أحوالنا فى أعين قوم آخرين كاحتقار هذين المسكينين عند أحوالنا فلما سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه فقال له وهل تعلم فى الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا أو سلطانا أعز من سلطاننا أو بلدا أكثر نعما من بلدنا أو مروة أحسن من مروتنا قال له الوزير لا قال الملك فمن هؤلاء القوم الذين زعمت انه يصغر حالنا فى أعينهم و يستحقرون أمرنا قال قوم يقال لهم النساك فقال الملك أين بلدهم ومن أى ناس هم قال هم من قبائل شتى متفرقين فى المدن وفى الآفاق والبلاد يجمعهم دين واحد ومذهب واحد ورأى واحد قال صف لى مذهبهم وحالهم قال هم أمناء الله فى خلقه وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده وليس فى الناس منهم إلا نفر يسير لأنهم فى الأنام كالملح فى الطعام بسؤالهم ينزل الله القطر من السماء والبركات فى الأرض و بدعائهم يرفع الله من العباد القحط والغلا والوبا ومنهم حفاظ كتب الله وعلماء تأويلها فقال الملك ومن أنبياء الله فقال الوزير هم طائفة من بنى آدم اصطفاهم من عباده وقربهم وناجاهم وكشف لهم عن مكنون أسرار غيبه وجعلهم أمناء وحيه وسفراء بينهم و بين خلقه أرسلهم من عالم الأرواح الذى فى ملكوت السماء الى عالم الكون والفساد فى الأرض وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده الى جواره فى الجنة التى كان أبوهم آدم فيها فقال الملك وماذا يصفون من أحوال عالم الأرواح وملكوت السموات قال يقولون ان هنالك فضاء فسيحا وافلاكا دوارة وكواكب سيارة وأنوار ساطعة و بهجة ونسيما وروحا وريحانا ونعيم الجنان والرضوان وحور حسان وولدان وغلمان ومردان وطيب ونسيم لا يخالطها هجير الصيف وزمهرير الشتاء ولا ظلمة الأجسام ولا فيء الأجرام ولا مزاحمة فى المكان وملك دائم وعز سرمد وأهلها أحياء لا يموتون وشبان لا يهرمون وأصحاء لا يمرضون وأغنياء لا يفتقرون وجيران لا يتحاسدون وأصدقاء لا يختلفون ونعيمهم لا يكدره بؤس ولذاتهم لا يخالطها آلام وسرورهم لا يشوبه أحزان وفرحهم لا يداخله غموم ولا هموم ولا نوائب ولا حدثان ولا تغيير الزمان فقال الملك وماذا يقولون هل

الى هناك وصول قال الوزير لا يشكون ان من طلبها كما يجب وصل اليها قال الملك فكيف وجه الطلب وكيف المسلك وكيف الوصول فوصف له الوزير ما ذكرنا طرفا منه فى رسائلنا الناموسيات وما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام فى كتبها وما أشارت اليه الفلاسفة الحكماء فى مرموزاتها

﴿ فصل ﴾ فقال الملك للوزير مذ متى عرفت هذه القصة واعتقدت هذا الرأى وعلمت هذا المذهب فقال مذ زمان قال فما الذى منعك ان تذاكرنى بهذا الأمر الجليل العظيم الخطير فى طول صحبتك معى قال الوزير انى لم أترك مذاكرة الملك بهذا الأمر الجليل لأنى بخلت عليك به أو لم أرك أهلا لذلك ولكنى تركته انتظارا وطلبا لفرصة توجب الخطاب وموضعه الكلام لأن النظر فى هذا العلم والبحث عن تحقيق هذا الأمر والتصور له بكنه المعرفة يحتاج الى قلب فارغ من أشغال الدنيا ونفس صافية من العوارض المكدرة والآراء الفاسدة والعادات الردية وهمة عالية فى طلب الأمور الشريفة والزهد فى الشهوات الجسمانية المذمومة وترك اللذات المحسوسة الجرمانية الفانية حتى يتصورها بحقها وصدقها كى لا يكون المقر بهذا الأمر مقلدا كالعوام الذين لا يعلمون من القول الا زورا ولا من العمل الا ظاهرا ولا من العلوم الا قشورا ولا من الدين الا تعصبا وان الملوك أكثر الناس شغلا فى أمور الدنيا وأطولهم أملا وأرغبهم فى الخلود فى الدنيا وأكثرهم تمنيا للبقاء فيها لشدة تمكنهم من التمتع بنعيمها واستغراقهم فى شهوات لذاتها ولا يصلح للمذاكرة بهذا العلم الا فتيان أذكياء لهم نفوس صافية وقلوب واعية بريئون من الآراء الفاسدة غير معتادين للعادات الردية أو مشايخ مهذبون فى العلوم الرياضية مجربون الأمور السياسية محبون للعلوم الالهية غير متعصبين فى المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة أو نفوس ملكية لها همم عالية فى طلب مراتب الملائكة والأمور السماوية والمعقولات الروحانية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمد

فقال الملك ما يسعنا بعد هذا اليوم الا أن نجعل أكثر عنايتنا فى الكشف عن حقيقة هذا الأمر على صحة وبيان من غير تقليد ولا تكذيب فان بان انه حق طلبناه

حق الطلب وتركنا ما نحن فيه من عبادة الأصنام وأمور هذه الدنيا التى كلها الى زوال وفناء كما فنيت أعمار الذين كانوا من قبلنا فزال ملكهم ونعيمهم ثم قال له اخبرنى ماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلائق هناك قال يقولون لا يعلم عددهم إلا الله كما لا يحصى عدد الخلائق الذين هم فى الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطيور والهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع وأصناف بنى آدم من أجناس الأمم من الترك والحبش والزنج والنوبة والعرب والعجم والفرس والروم والهند والسند والصين والنبط والزط والاكراد ويأجوج ومأموج والسيسان وأمم آخر غير معروفة عند كثير من الناس وكل هؤلاء مختلفو الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسوادات والسواحل والجزائر والبرارى نحو من سبعة عشر ألف مدينة يملكها نحو من ألف ملك هذا فى الربع المسكون من الأرض على ان الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبرارى والأنهار والعمران والخراب ما هى فى فسحة سعة الهواء الا كحلقة ملقاة فى برية صحراء وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرية على تلك الحلقة أفترى أيها الملك ان الخالق تعالى ترك تلك الاماكن الواسعة مع شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الاجرام وطيب نسيم ذلك المكان فارغة خالية لم يجعل فيها أهلا وسكانا وخلائق يليق بها وهكذا انه لم يترك البحار الإجاج الأمواه حتى خلق فى قرارها الزاخرة أجناساً من الحيوانات وأنواعا من السموك والحيتان وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يترك فارغا حتى خلق فيه أجناساً من الطيور تسبح كما يسبح السمك فى الماء وكذلك هذه البرارى اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناساً من الوحوش والسباع والأنعام وكذلك فى الآجام والآكام ورؤس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق فى لب النبات وفى ثمر الشجر فى جوف الحب حيوانات مختلفة الصور والأشكال انتهى

الارادة والاختيار

والإنسان ميل طبيعى الى ما يعلمه بهذه القوى الثلاث و يسمى إرادة وهى عامة فى الحيوان والانسان فيشتاق الحيوان الى ما يراه بحواسه و ينفر عما يضره وهكذا الى ما يتخيله وما يعقله ولكل من هذه الثلاث مرغوب عنه ومرغوب فيه فهى ستة أقسام ثلاثة مرادة وثلاثة غير مرادة . فما اشتاقت اليه النفس من المحسوسات حركت تحت إرادتها الاعضاء للطلب وما نفرت عنه حركتها للهرب منه فتأمل كيف خلقت الاعضاء صالحة للطلب والهرب على مقتضى ما تحسه فى الخارج ليكون النظام تاماً وتكون الأفعال هنا جسمية بالأعضاء وعقلية بشعور الحواس وأما القوة المخيلة فيكون وصولها الى ما أرادته بمجرد التخيل أو بالاستعانة بالحواس على استحضار الصورة بالمشاهدة أو بأخذها من العقل كما فى حال الرؤيا الصادقة .

وأما العقل فمتى اشتاق لشىء فانما يكون بأعمال عقلية لا غير مسخراً تلك القوى تحت أمره لتحضر له الجزئيات لاستنتاج الكليات ذلك عمل عقلى فلكل درجة من درجات الحس عمل يناسبها

السعادة والاختيار

لا ريب ان الإرادة عامة عند جميع الحيوان وهو مشترك كله فى الحواس وقوى النفس يتصرف على حسب الخيال والحواس اما الانسان فارادته التابعة لعقله أرقى من تلك الإرادة إذ هذه معرفة للعواقب لا كالإرادة فى الحيوان إذ لا يعرف الا المشاهد أمامه الحاضر ولنسم إرادة الانسان اختياراً ولا ريب انه بهذا الاختيار يرقى الى السعادة تارة و ينزل الى حضيض الهوان تارة أخرى ومتى تمكن الشوق فى فؤاده حركه طبعا الى المشتهى ولا تظن ان العقل مهما وصل من الكمال وكذا الخيال والحس يكفى للحياة فى هذه الدنيا بدون شوق فالحيوان بحسه وخياله والانسان بعقله مهما أدرك كل منهم النافع والضار لا يعبأ به الا اذا حصل عنده شوق الى الطلب أو الهرب فلا بد اذن

فى كل أمة من انماء قوة الشوق عنـد التلاميذ الى المعالى وعلو الحياة ونظام الأمة والعلوم والمعارف ومكارم الأخلاق و بهذا الشوق يشتغل الناس بالسعادة ويصلون الى الكمال

حكمة تامة ونظام عجيب

ها أنت ذا علمت نظام العين وتركيبها العجيب أولا ثم قوى النفس الداخلة وما معها من العقل ودرجاته ثم العالم كله وغرائبه فها هو ذا تركيب العين فى غاية من الاتقان والبهجة والنواميس الغريبة التى علمتها وعالم النفس قد شاهدت حكمه العجيبة ورأيت أن العين والنفس كلاهما من حسن اتقانه قد اتسع لما لا يحصى من العالم فالعين وسعت السموات والأرض وان كانت لا شعور لها بشىء وإنما هى آلة والنفس وقواها قد أدركت مالا نهاية له من الصور والمعقولات فكأن كلا منها عالم مركب متقن غاية الاتقان ولعمرى ان بينهما و بين العالم كله مشاكلة تامة ولذلك يقول تعالى (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْض) إشارة الى النظام العمومى فى السموات والأرض .

ثم قال مثل نوره كمشكاة الآية إشارة الى ان عالم النفس عالم وضعه كوضع العالم كله والسراج وأما العين فانما هى آلة من آلات النفس وهاك البيان قد علمت ان المصباح ما تم أمره إلا بأشياء مختلفة من زجاج ومشكاة ومادة بهـا يتقد كالكهرباء أو المواد الدهنية وهى لا جرم تختلف درجات بعضها فوق بعض فى الاضاءة ولولا هذه الشروط ما تمت الاضاءة ولو نظرنا الى جسم الانسان لوجدناه مركبا من عناصر مختلفة اتحدت وكوّنت هيئة اشتعلت فيها نار الروح الحيوانية ولكن فرق بين النارين فهذه نار معنوية وتلك نار حسية لأن تركيب الجسم أتم من تركيب المصباح ثم انك اذا تأملت العالم كله الفيته كالمصباح فى تركيبه بل كالجسم فى نظامه فكلما كان الشىء أتم تركيبا وأجمل وضعاً كان أكثر نفعاً ولذلك كان نظام العين لشدة دقته أجمل من نظام السراج فى صنعته ولذلك كان نفعه أعم وأهم وما نسبة العين لنفس الانسان الا كنسبة السراج لهذا العالم بل كل سراج فى العالم محسوس من الكواكب والمصابيح

فهو نظير الحواس عند الانسان ولكل نور يناسبه فالكون المحسوس نوره محسوس وجسم الانسان لما كان مداره على الروح كان نوره أقرب لها وهو نور العين

فقوله الله نور السموات والأرض إشارة لنظام العالم وقوله مثل نوره إشارة الى روح الانسان فى جسمه موازنا بينها و بين المصباح وتركيبه

فالموازنة بين العالم والانسان والمصباح والعين أو الروح صحيحة فأيهما وزن بالآخر صح اعتباره فاذا وازنا بين روح الانسان والمصباح وجدنا ان جسمه كالزجاجة وروحه كالمصباح وكما ان للمصباح زيتا يتقد منه فكذلك الروح لها مادة وهو الدم المنبعث من القلب المبخر لخلاصته وهى الحرارة الغريزية

وكما أن السراج يضىء البيت فكذلك الروح تضىء الحواس كلها وكما أنه اذا أحيل بين السراج و بين ركن من أركان البيت أظلم فكذلك الروح متى أحيل بينها و بين حاسة من الحواس بحصول عائق فى أعصاب الحس أو مواد الاحساس لم تحس تلك الحاسة وأظلمت وكما أن المصباح ينطفىء بأحد أمرين إما بوارد عليه من خارج و إما بانقطاع مادة إيقاده كالمواد الدهنية أو روح الكهرباء فهكذا الانسان يكون موته إما بقتل و إما بنفاد مادة الحياة وكما أن للسراج مادة يتقد فيها أيا كانت تلك المادة فهكذا الروح لها مادة وهى خلاصة الدم السارية فى جميع العروق واعلم أن هذه المواد المشاهدة بينها تفاوت عظيم جداً فالمادة الطينية لا تقبل ناراً البتة فاذا أشرفت إلى أن صارت نباتاً قبلت النار المحسوسة فاذا ارتقت الى الحيوانية كانت نارها أضوء كالشموع التى نارها حسية وظهرت فيها الروح الحيوانية فى جسم الحيوان فاذا ارتقت الى الانسانية صارت الروح أجمل وجاء لها العقل وارتقت الى عالم الجمال وهذا هو نهاية الإبداع فهذه هى سنة الكون وهى الترقى (ولن تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً ولن تجدَ لسنةِ الله تحويلا) (فسنة الله فى الكون الترقى دائماً)

فوازن بين هذه السلسلة الآخذة من الجماد الميت الى الروح العاقلة فى الانسان

و بين نحو الطفل ولادة فصبا فشباب فكهولة فشيخوخة فموت وهكذا المولدات من جماد فنبات فحيوان فانسان فعقل راق وهكذا الأمة تبدو كالطفل فتشب فتصير فى الكهولة فالشيخوخة فالموت وهكذا الليل والنهار فى زيادتهما ونقصهما فى السنة كلها وهكذا فى نفسهما فترى الشمس تأخذ فى الارتقاء حتى تصل الى كبد السماء ثم ترجع كأحوال الانسان بل العالم كله على هذه السنة (ما ترَى فى خلقِ الرحمنِ من تفاوُتٍ وكلُّ شىءٍ عندَهُ بمقدارٍ عالمُ الغيبِ والشهادةِ الكبيرُ المتعال)

ابداع العقل والمنطق والخط

علمت حواس الانسان وقواه الباطنة ورأيت أنها جمعت تفاصيل ما لدينا من كل ما نشاهد من العالم بصوره ومعقولاته فتأمل كيف عمل العقل فى الكثيف عملا جعله لطيفاً ثم ترقى فصار معقولا فالمحسوس مراتب ثلاث صوره الخارجية ثم تلطفه وخروجه عن المادة بصورة فى النفس ثم صوره العقلية المنتزعة من صور الخيال فما أعجب هذه الحكم وما أبهجها فياليت شعرى كيف صار الجماد معقولا و بأى وسيلة أصبحت هذه الاجرام العظيمة كلها فى عالم النفس بصورها وأشكالها ثم كيف ترقت فصارت أموراً كلية فى العقل و بأى وسيلة ترجع الأمور المعقولة فتصير خيالا إما فى النوم ورؤية الكليات فى صورة جزئيات و إما باستعمال العقل لاستخراج جزئيات يتصورها الخيال ثم تبرز فى الخارج بالجوارح بواسطة الآلات المسوقة بالشوق ثم تأمل كيف برزت صور الخيال والعقل الى الخارج بواسطتين إحداهما الأفعال بواسطة المواد والآلات وثانيتهما بواسطة اللسان وآلات النطق بالهواء فيحدث صوت يتشكل بأشكال مختلفة تسمى حروفا تجتمع مع بعضها فتكون كلمات لاحصر لها مساوية لما يحدث فى الخارج من المركبات العنصرية فى أنواع الكائنات الداخلة من الحواس المصورة فى الخيال

ولكون الانسان مدنياً بالطبع احتاج الى النطق يبرز ما فى ضميره الى ذهن غيره

فكان نسخة العالم كله احضرت أمامه و يختار منه ما يشاء ويعبر عنه ليعرف الآخر ما عنده ثم ان الانسان مع هذا كله تبقى حاجاته غير تامة محتاج الى زيادة تكملة فانه لايمكنه أن يكلم من هو بعيد مكانا ولا من فى مستقبل الزمان ولا يعرف أخبار الماضين فلهذا كله اقتضت الحكمة الالهية أن يكون الانسان كاتباً لتبقى أفكاره بعده ويحيط بها علماً من أبعد مكان و يدون جميع الأعمال بصور الحروف المكتوبة لأنها أثبت ولا يمكن انكارها فها هنا مراتب العقل والخيال واللسان والكتابة فاللسان يحضر صور الحروف وهى دالة على مافى العقل والخيال وهما دالان على ما فى الخارج إلا أن الصورة فى الكلام أضعف من صورة العقل والخيال لأن الكلام دال وذانك مدلولان ثم الكتابة دالة على الحروف ولعمرى كم من الفرق بين حروف تكتب وصور الأشياء بنفسها فى المخيلة .

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَم يَعلَم)وأشار الى النطق بقوله(الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرآنَ خَلَقَ الانْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ)والى الكتابة بقوله (ن والْقَلَمِ ومَا يَسْطُرُون) وقوله (اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِى خَلَقَ خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَق اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الذِى عَلَّم بالقلم عَلَّم الانسانَ مَالَم يَعلم) . وهنا دور عجيب تنظر الحواس الأمور الخارجية فترصد فى دفتر الخيال ويسمى المصورة أيضاً ثم تذهب الى العقل ثم ترجع الى الخيال ثم النطق فالكتابة ثم ترجع الى الحواس من طريقها ولكن صغيرة عن حالها الأول فانها دخلت أول مرة بصورة والآن بدال الصورة فيكون العلم أضعف من المشاهدة ولذلك كان أقل الناس علما من حرموا النظر فى الكون واقتصروا على الكتب يدورون فيها كما يدور الحمار فى رحاه (أولَمْ يَنْظروا فى مَلكوتِ السَّمَواتِ والأَرْضِ ومَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شىءٍ وأَنْ عَسى أنْ يكون قد اقتربَ أجَلُهم) فوجود العلوم فى الكتب فى مرتبة سابعة فافهم

ضرب مثل لحال النفس مع الجسم

مثل النفس مع الجسم كمثل وزير يدبر أمور رعاياه ويقوم بشؤونهم وهو مع ذلك يتلقى أوامر الملك أو كمثل حاكم مقاطعة من المقاطعات ينظر فى أمور الناس ويسمع أمر الوزير وهو أعلى منه فهو بين أعلى يأمره وأسفل يأتمر بأمره فاذا أظهر استعداده لرتبة من هو أعلى رقاه الوزير وباشر الأمور العليا فهكذا الروح يدبر الجسم ويسعى فى تكميله بالأخلاق ويتكمل هو بالعلوم ليستعد للترقى الى ماهو أعلى فى عالم أجل من هذا

واذا تأملنا أحوال النفس مع الجسم نرى انها مع قواها كرب المنزل سكن هو وأسرته فيه فالنفس رب المنزل والقوى أهله وخدمه وحشمه والجسم هو المنزل .

ومن جهة أخرى نجد أن هناك أعمالا داخلة فى الجسم ناتجة من قوى النفس فهناك القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمصورة والحواس الخمس والخيال وقوى الدماغ والاحساس والحركة ولا ريب ان هذه القوى لها اعمال عجيبة داخل الجسم وخارجه وما أشبهه الا بصانع وتلامذته أو مهندس وعماله يعملون جميعا فى دار صناعة واحدة

ثم ان هذه الأعمال لا يمكن حصرها وكأن كل قوة من هذه القوى وحدها لكثرة أعمالها وانتشار عمالها معمل مخصوص كثرت عماله كما أوضحناه فى ميزان الجواهر فالقوة الجاذبة نراها منبثة فى جميع الأعضاء المحتاجة للجذب كالمعدة والحلقوم فترى المعدة تجتذب الغذاء الى أسفل لا سيما الحلو وهكذا المرىء يحصل فيه جذب للطعام كجذب الرحم لماء الرجل وقس عليها الماسكة فانها تمسك لكل عضو من أعضاء التغذية ما أودع فيه حتى يفرغ من عمله وهكذا أعضاء الجسد كلها تمسك عليها ما يغذيها من الدم فالأول كالمعدة والاثنا عشرى والكبد فكل من هذه الثلاثة تبقى فيه المادة حتى يتم نضجها الى ان تدفعها الدافعة والثانى كاليد والرجل والعين وغيرها فكل من

هذه الأعضاء اذا جاء اليها بتقدير الحكيم العليم ما يليق لها من الدم للتغذية أمسكه الله عليها حتى يتم بناؤها فلله الحكمة البالغة ان فى ذلك لآيات القوم يعقلون فلكثرة الاعمال وانتشار العمال وتفرق أعضاء الحس والحركة وغيرها فى سائر البدن يمكن اعتباره مدينة ذات معامل كثيرة الصناع منتشرة العمال لا يهدؤن ليلا ولا نهاراً فى أعمالهم

ثم اننا اذا لاحظنا ان النفس وقواها الحاسة والمحركة تأمر الجسم فيأتمر وتنهاه فينتهى فهو مطيع مسخر مقهور تحت هذا المسلط القاهر القادر وهو (النفس) أمكننا تشبيهما بملك وأعوانه مسلط على مملكة الجسم وأى ملك فى العالم أقدر على رعيته من النفس للجسم وأى رعية أطوع لمالكها وأخضع لسيدها من الجسم الى النفس وقواها و يضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم

ثم اذا راقبنا أعمالها نجدها كأنها حارث يحرث أرضا يخرج له ثمر يناسب الحارث والمحروث فالنفس كالحارث والجسم كالأرض والأعمال كالثمر .

ولما كان نوع الأنسان غير منحصر فى عدد بل أفراد منتشرون وهم فى أعمالهم يتنافسون وفى أغراضهم يتنازعون أمكن تشبيه النفس بالفارس والجسم بالفرس والحياة بالميدان والناس يتسابقون وقصب السبق هى المعالى فاذا لاحظنا الحياة والموت وغصص الدهر وأعمال الناس واختلافهم والفصل بينهم بالحق وهم لايظلمون أمكن تشبيه الجسم بمركب والنفس ملاحه والبحر فتن الدنيا والبضاعة المحمولة فى السفينة عمل النفس والساحل الموت ومدينة التجار وراءها وفيها الرب الجبار يعطى كلا من هذه الأنفس ما يليق لها على حسب بضاعتها ان خيراً فخير وان شراً فشر .

و إذا لاحظنا أن نفس الجسد منظم فى غاية الحسن والابداع والجمال والبهاء والنفس تقرأ فى نقوش ابداعه ومحكم تركيبه شبهناها بصبى يتعلم فى مكتبه . ثم نرتقى عن ذلك كله إلى أن النفس تنظر إلى نفسها وقواها فتجد فيها صوراً ونقوشاً وعلوماً فكأنها دفاتر رصد فيها الصادر والوارد والعالم بأجمعه فكأنها عالمة معلومة وعلومها مختصرات علوم الكون أجمعه (انَّ فى ذلكَ لآيات لقوم يعقلون) فانظر كيف

شبهت مع الجسم بمنزل ومعمل ومدينة ومزرعة وميدان ومكتب ودفاتر ان فى ذلك لذكرى لأولى الألباب

قوى الأنسان كلها ترجع الى نفس واحدة

اعلم أن القوة الغاذية وممداتها وفروعها من الهاضمة والماسكة ونحوها وما يتفرع عنها من النمو بقسطاس مستقيم وتدبير محكم من طول وعرض وعمق لكل عضو مايليق به من مقاديره وأنواع غذائه — مقدمة على قوة الاحساس بالحواس الخمس ورئيسها الحس المشترك فالحس المشترك تخدمه الحواس الخمسة كما كانت ممدات القوة الغاذية خادمة لها وهذا الحس المشترك مقدمة للمخيلة (المصورة) وهذه مقدمة للنفس الانسانية

فاذن هى نفس واحدة لها خدم يشتركون فى خدمتها بعضهم فوق بعض فأولها المخيلة فالحس المشترك فالغاذية ويقترن بكل قوة من قوى الادراك الثلاثة نزوع الى مشتهى أو نفور عنه فيكون للارادة ستة أنواع ثلاثة منفور عنها وثلاثة مشتاق اليها فالحواس الخمس كل منها موكل بعالم من العالم المشاهد فتأتى كل حاسة بخبر عالم من العوالم كما أوضحناه سابقاً فتشتاق النفس اليه وتنفر عنه كطعام محبوب أو مكروه كالتمر والحنظل فتأمل كيف تتسلط القوة النزوعية على أعضاء الحركة فتحركها إما إلى طلب وإما إلى هرب وتستعين بالأعضاء الظاهرة فى السعى إلى ما أحبت وفى الهرب عما كرهت وان كان هناك مانع أثناء السعى أزلناه بأيدينا حتى نصل اليه فهذه كلها أعمال الأعضاء الظاهرة فاذا ذقنا هذا الطعام المشتهى حصل شعور النفس وهذا بعينه فعل النفس بعد فعل الأعضاء فما أحسته الحواس ينال بفعل الجوارح وفعل النفس وهكذا المخيلة تتبعها ارادة إما إلى طلب المتخيل أو الهرب منه وذلك يكون بأحد ثلاثة أمور

إما باستخدام الحس المشترك وإما باحضار الخيال تلك الصورة فلا تعمل للجوارح من جهة المخيلة قط فاذا اشتاقت إلى إحضار صورة جميل تعرفه بعينه فتارة تستخدم

الحس المشترك وهو يستخدم البصر لينظرها وتارة تحضرها هي بنفسها . وأما الارادة التابعة للعقل فبالفكر تستنتج الحسن والقبيح وتستخدم جميع القوى فى درء ما كرهت وجلب ما أحبت

و بالجملة فالعقل هو الحاكم على جميع القوى الرئيسية والقوى الارادية فهى نفس واحدة وكل هذه فروعها وتبع لها

ولا تظن انها تتمثل بجزء وتحس بالحواس الخمس بجزء وتتغذى بجزء بل هى شيء واحد وله أحوال مختلفة كما أن الكاتب يمسك القلم ويكتب ويعدل السطور ويضع النشافة على الورق ويطوى الكتاب فليس لكل عمل من هذه واحد مخصوص وانما العمل لواحد ولكثرة قواه كثرت أفعاله فهكذا العقل ينظر ويسمع ويشم ويذوق ويلمس ويتخيل ويتغذى ويريد ويعمل ويكر ويفر وهو واحد فى ذاته

برهان ان النفس وقواها واحدة

ولعلك تقول هذا تمثيل لا برهان عليه فانى لا أقنع إلا بالبراهين واما ضرب الأمثال فكيف يكفى من درس العلوم أقول ان الحكماء برهنوا على هذا براهين وربما أخال ان كثيرا لا يفقهون جلها ولكن لابد من ذكر اجلى البراهين وأوضحها فعساك يطمئن به قلبك ها أنت ذا تعلم أن طبيعة الأجسام لا تقبل التداخل فالجسم الواحد لا يقبل دخول غيره فيه قط كما هو معلوم من الطبيعة فما لنا نرى كل قوة من قوى الدماغ تسع صوراً لا نهاية لها فاذا كانت أجساماً فكيف تسع مالا يتناهى من صور السموات والأرض وما بينهما ومن القضايا الكلية والجزئية فهذه طبيعة خالفت طبائع الأجسام فليست منها واذن فهى لا تنقسم اذ المنقسم هو الجسم فالنفس أمر بسيط

وأيضاً نرى أن القطعة من الشمع مثلا لا تقبل صورة إلا بعد ذهاب أخرى وهل يمكن أن تكون قطعة الشمع مثلثة ومربعة فى آن واحد كلا فما بالنا نرى القوى التى فى الدماغ تقبل علماً وتقبل آخر فآخر إلى ما لا نهاية له ومع ذلك لا تمحو الصورة

المتأخرة الصورة المتقدمة فلو كانت جسما لمحى السابق بالعلم اللاحق بل العلوم كلما كثرت عند النفس تقوى بها على غيرها من العلوم ، أما الأجسام فلا تقبل إلا شكلا واحداً (انّ فِي ذَلِكَ لعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَار) أليس ذلك لكون النفس أمراً غير جسم فلا ينقسم إذ لو انقسم لكان جسما وقد برهنا أنه ليس بجسم فكفاك هذا برهاناً على أن النفس أمر واحد غير جسم وهذه القوى ليست غيرها و إنما هى صفات لها كما قدمنا أيضاً أن المادة أمر مجهول ظهرت صفاته التى عشقتها النفس وسعت لها بقواها

المادة والنفس

فالمادة كما قدمنا لم يمكن معرفة كنهها والنفس مثلها لكل منهما صفات مختصة به تتلاقى تعاشقاً فجعل المادة بظواهرها مكملة للصورة الانسانية) إنّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون) .

المادة والنفس والعقل والملائكة

اختلفت الأفكار وتباينت الآراء فى الموجودات تبعاً لاختلاف الفطر وفوق كل ذى علم عليم ، فقال قوم ليس فى الوجود إلا الله والمادة ، فالمادة هى المصنوع والله عز وجل هو الصانع وأنكروا النفوس والأرواح وقالوا ليس هناك شىء سوى المادة وقالوا أن ما نراه من قدرة الانسان وعلمه وحكمته وما يظهر من غرائب الحيوان فهى قوة جسمية وجميع ما نراه من أفعال الجماد فى الطب والكهرباء فمنهم من قال فعل الله ومنهم من قال بالبخت ومنهم من نسبه إلى الطبيعة فاذا سئل عنها عجز عن تفسيرها ثم جاء من بعدهم قوم آخرون وقالوا إننا نشاهد المادة أمامنا ميتة مظلمة وجميع أعراضها لا تعطيها قوة بل هى قبلها لاحراك لها فالمادة وصفاتها ميتة منفعلة فكيف تكون فاعلة فى نفسها هذا مما لا يكون

ثم أننا نشاهد بعض الأجسام حلها أمر غريب عنها فحركها وأعطاها الحس

فسميناه نفساً وهذا لكافة الحيوان بل والنبات فكل ما ينمو سمينا ما فيه نفساً نباتية وكل ما يتحرك ويحس سمينا الأمر الذى حل فيه نفساً حيوانية إذ هذه الأفعال والقدرة والادراك ليست من صفات المادة و إنما هى فاعلة والفاعل غير المنفعل فهذا طبعاً أمر ثالث غير المادة والخالق

ثم إننا نرى بعض الحيوان وهو الانسان تختلف أفكارهم وتتفاضل قرائحهم بأمور أخرى فقلنا أن هذا التفاضل جاء لها بأمر غريب قاهر للنفوس ومسيطر عليها . ألا ترى أن النفوس مدارها على الشهوة والغضب فى الحيوان والانسان ولكن هذا الأمر الغريب يزجرها عنهما و يأمرها بالاعتدال فسمينا الأمر الوارد على النفس عقلا فهينا مادة تسلطت عليها نفس وتسلط عليها عقل حل فيها حلول الصفة فى الموصوف فبهذا ثبتت المادة والنفس والعقل

ثم قالوا اننا نرى المادة فى السموات والأرض مسخرة كلها جارية بنواميس كلها سائرة على محور النظام والعدل والكمال وقد علمنا أنها من نفسها لاحراك لها فوجب أن يكون لها محرك يقرب منها و بينه و بينها مناسبة لأنا علمنا أن هذا الحكيم الذى دبر الكون ربط الأسباب والمسببات فجعل كل شيء يناط بما هو أقرب إليه فى الشبه ثم الكائنات متشابهة فاذن لابد للعالم كله من نفس مدبرة له خاضعة تحت إشارة العقل الذى هو فوقها كما أن للانسان عقلا مسلطا على نفسه القاهرة لجسمه إذ النفس لاتستقل بنفسها فى تدبير الأجسام بل هى تستمد من العقل فى كل آن فقاس هؤلاء نظام الكون كله على الانسان وقالوا أن هناك نفساً مدبرة تتحرك بها العوالم تتصرر الجزئيات وتتلقاها عن العقل القاهر فوقها .

وهذا العقل يسميه الشرع اللوح المحفوظ فتتلقى منه النفوس عند الحكماء (وهم الملائكة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) الأوامر و يتحرك هذا العالم على نظام عجيب هذا معنى ما يذكره هؤلاء وقالوا أن أول ما خلق الله العقل وهو فيض من نوره تنزل من تلك السبحات العليا وفاض فيضاناً بلا زمان ولا مكان إذ كان الله ولم يكن

زمان ولا مكان لما تعلم أنه قبل خلق العقل لم يكن إلا الله فأين الزمان وأين المكان فان المكان يستلزم المادة وهى لم تخلق والزمان لابد فيه من حركة الافلاك كما هو مقرر لامطلق حركة ثم خلق بعد العقل الهيولا (المادة) بسيطة لاتدرك بالحواس كالاجسام الروحانية ثم أعطاها الصورة بأن مدها طولا وعرضاً وعمقاً وصارت كرة عظيمة غازية ألطف من كل ما يرى ثم أفاض الله عليها النفس من العقل فدارت المادة دورات سريعة على مقتضى النواميس التى وضعها مدبرها وألقاها فى اللوح المحفوظ ومنه فاضت على النفس الكلية (الملك) المسلط على المادة فصارت كرات كثيرة دائرات وكل كرة خلقت فيها نفوس لايعلمها إلا الله وأودعت فيها نفوس كلية تارة وجزئية أخرى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) ومن هذه النفوس الجزئية الأنفس الحيوانية والنباتية والانسانية التى فاض عليها من اللوح المحفوظ نور ألهمها تقواها ومن نفوسها فيض ألهمها فجورها . هذا زبدة ما قاله هؤلاء الناظرون مع رعاية العلوم الحاضرة

وأنت تعلم أيها الأخ المطلع على كتابى هذا أننى لاأقول هذا من باب أنه هو الطريقة التى خلق عليها العالم قطعاً لا و إنما هى التى أخذها الناس بفراساتهم من ظواهر الكون مع تأملهم فى الشرائع السماوية فيجعل كأنه فرض تحل به المسألة حلا وقتياً و إلا فمبدأ خلق العالم أمر مجهول بالكلية و إنما هذا القول أقرب الأقوال إلى الحقيقة بحسب ما بلغه علمنا إذ من الناس من يقول العالم مركب من أجزاء لاتتجزأ والآخر يزيد فى الطين بلة و يقول مركب من أجزاء تتجزأ ولا تخص عنصراً مخصوصاً من العناصر المعلومة وآخرون أفرطوا فقالوا هذه العناصر كلها أصلية فأصل العالم مركب منها وزاد قوم ضلالا فقالوا بقدم الافلاك وزاد آخرون جهلا فقالوا بقدم المادة وهذا كله خبط عشواء لادليل عليه بل أدحضه كله الاكتشافات الحديثة والعلوم الجديدة التى قوضت تلك الترهات ومن هذا تفهم الحكمة المشهورة

أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قاله أدبر فأدبر ثم قال وعزتى

وجلالى ما خلقت خلقاً هو أعز على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب

وما نتيجة المادة إلا النفوس الحالة فيها الفائضة من العقل الذى جعله الله محيطا بها . فتأمل كيف ترقت المادة بظهور أثر النفس فيها من نبات إلى حيوان إلى انسان وإن إلى ربك المنتهى فاذا تكمل الانسان بالعقل يرجع إلى الملأ الأعلى فالمبدأ هناك وهو العقل فأصل المبدأ صار هنا منتهى ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم هو نهاية ابداع النوع الانسانى استعد لفيضان النور عليه من الملائكة وصار يترقى إلى مالا يتناهى ومن هذا نفهم كيف احتاج الكون إلى ملائكة فانك علمت أن المادة لا حراك لها فلا بد من ملائكة فيها كلها وإلا فما الذى حرك هذه الكواكب ولا بد من ملائكة أيضاً فوقهم ليعطوهم الأوامر بالنظام وإلا فما هذا الحساب البديع لا يتغير على مدى الزمان وأعلاك تقول أن الله هو الذى أدارها فنقول لا ينكر جاهل فضلا عن عالم ذلك ، أليست الملائكة من أفعال الله واذا كانت نفوسنا ونفوس البهائم هى المحركة لهذه الأجسام أفلا يعد الله محركا لنا فهكذا تحريك الكون كله يحتاج إلى ما احتاج إليه الجزء الصغير من نفس وعقل ويكون الله المحرك بالضرورة وهذا القول مطابق لما ورد فى الشرائع الالهية من ذكر الملائكة وإنهم منوط بهم أمر العالم كله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولذلك ترى نظامهم على غاية الاتقان .

واعلم أن الملائكة خلق من خلق الله تعالى يحار العقل فيه فان سألت عنهم فاعرف عقلك ونفسك أولا وتأمل أنك إبداع غريب يغمض عينيه فيرى ملكا عظيما وكل ما شاهدته فى الخارج موجود فيه فان فهمت هذا فارجع إلى الملائكة ويا ليت شعرى إذا عجزنا عن معرفة نفوسنا فكيف نعرف ذلك العالم العظيم وهم الملائكة وكيف نعرف مدبر الكون كله أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رب العالمين

(لطيفه)

كل مصنوع للانسان محتاج الى مادة وصورة وحركة وآلة وزمان ومكان فيحتاج الكاتب الى قلم وحركة يد والى حبر وورق ثم جعلهما صورة واحدة وكل هذا فى زمان ومكان فالمادة الحبر والورق اوالصورة هى الحاصلة من اجتماعهما والحركة معروفة وقت الكتابة والقلم والآلة والزمان والمكان معروفات فهذه ستة أشياء ثم المصنوعات الالهية كالنبات والحيوان والانسان تحتاج لأربعة المادة والصورة والزمان والمكان ولا حركة ولا آلة كالجنين فى الرحم فانك لا ترى فيه آلة رسم ولا حركة من الراسم وانما يرسم جل جلاله نقشاً بديعاً تحار فيه العقلاء ولاترى آلة رسم ولا حركة تظهر (إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لِقوم يتفكرون)

ثم الكون المحسوس كله وهو الجسم العمومى المكون من افلاك دائرة سائرة تكون بمادة وصورة ولكن لا زمان ولا مكان ولا حركة ولا آلة إذ الزمان لا بد فيه من حركة فلك وهناك لا افلاك والمكان معلوم وليس هناك سوى هذا الجسم وغيره عدم فكيف يكون له مكان ولعمرى لقد جهل قوم بمثل هذا الكلام وفهموا منه انه لا أول له وهو خطأ محض بل كان الله ولا زمان معه إذ الزمان بحركة الافلاك فاذا لم يكن فلك فلا زمان فكيف اذا لم تكن مادة أصلا

ثم الملائكة المدبرة لهذا النظام كله لا مادة لها ولا صورة ولا حركة ولا آلة ولا زمان ولا مكان فتأمل هذا الترتيب العجيب فالموجود اما الا يحتاج لموجد أصلا وهو الله تعالى واما ان يحتاج لموجد بلا آلة وهم الملائكة أوسع مادة وصورة وهو الجسم أو معهما ومع الزمان والمكان فهى أنواع المولدات أو مع هذه الأربعة والحركة والآلة وهى الصناعات الانسانية

آراء الناس فى النفس

آراء العقلاء ونتائج ابحاثهم تابعة طبعاً لما يغلب على عقولهم وما تصل اليه معارفهم وهذا هو السر فى عدم الاتفاق وكثرة الاختلاف فى كل مسئلة وأعظمها اختلاف وأكثرها تشعباً نفس هذا الانسان ولكل وجهة هو موليها وقد بلغت الأقوال فيها قريباً من المائه فمن قائل انها الهواء إذ بانقطاعه تنقطع الحياة ومن قائل انها الدم إذ بوقوف حركته تقف الحياة وهكذا من الأقوال الدالة على نظر لجهة دون جهة وأهم الأقوال ثلاثة فقال قوم انما النفس هو هذا الجسد إذ كل ما عندنا من القوى النفسية ناتجة من هذا الجسم وعنه تفرعت ألا ترى انه اذا تغير المزاج أو مرض الجسم أو انقطعت عنه مادة الغذاء أو جرح أو انكسر عضو من اعضائه يذهل العقل وتضعف القوى فلا علوم ولا معارف على ان الشيخوخة تذهب بالفكر وترجع العاقل الكبير طفلا صغيراً

وقال قوم ضد الأولين ان النفس هى قوة مسلطة على الجسم ذات قوى تتصرف فيه تصرف الملك فى الرعية ألا ترى ان الجسم ان هو الا جماد تحركه تلك القوة المدبرة فاذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله واعتبر حال الغضبان فانظر كيف تحمر عيناه ويقبلبل لسانه وتضطرب حركاته وهكذا السرور والعلم والجهل ولعمرك كم من الفرق بين عالم عظيم وجاهل فانظر كيف أثرت المعارف والأخلاق على الجسم وما هذه كلها الا من تلك القوة المدبرة وتأمل انها اذا خرجت من الجسم بالموت أصبح ولا حراك له بل يكون جيفة لا قيمة لها ويخرجها أعز أصحابه وخلانه ولو كانت هى النفس لأبقوها فى أماكنهم فقد علموا ان النفس هى التى خرجت من عندهم وتركت فضلاتها فأخرجوها ونظر آخرون فى قول سابقيهم فقالوا اننا نرى ان كلا من الروح والجسم يؤثر على الآخر فالروح بما لها من السلطان على الجسم تؤثر فيه

صلاحاً وطلاحاً وصحة ومرضاً وهكذا الجسم والذى نستنتجه من ذلك ان الروح وجدت فيه لتتربى كما يتربى الحب فى النبات والثمر فى الشجر والفرخ فى البيضة والجنين فى الرحم فلا تزال تنمو فيه الى أجل مسمى

وكما أن المقصود من النبات الحب ومن الشجر الثمر ومن البيضة الفرخ فكذلك المقصود من هذا الجسم هى تلك الروح وكما أن البيضة تضعف إذا كبر الفرخ وقوى . والنبات يصفر وينحنى إذا اشتد الحب فكذلك الجسم يأخذ فى الضعف إذا قويت الروح وأرادت الخروج وكما أن كلا من الفرخ والحب يبقى بعد خلاصه من البيضة والزرع فكذلك الروح باقية بعد هلاك هذا الجسم وكما أن الفرخ والنبات والجنين فى بطن الأم تكون على حسب نوع البيضة والنبات ومزاج الأم فكذلك الروح بعد الموت تكسب الصفات التى تناسب ما كانت تكابده مدة الحياة وكما أن الحب بعد خلاصه من التبن قد يكون غذاء للنوع الأرقى وهو الانسان وبعضه يكون غذاء للنوع الأدنى وهو الحيوان وبعضه مشترك بينهما وبالجملة يكون أنواعا كثيرة فهكذا الأرواح تكون درجات متفاوتة على حسب أنواع التربية التى تربيها الانسان فى هذه النشأة فكل يترقى فيما غلب عليه فمنهم جلساء الملائكة ومنهم من هو أدنى من ذلك إلى أن يبلغ درجة سجين وكما أن الحب إذا خلص من التبن والثمر من الشجر وهو لم يبلغ أشده يكون ضعيف الفائدة أو عديمها فكذلك النفس إذا خرجت من الدنيا وهى لم يكمل تهذيبها تكون فى عالم الآخرة أبعد عن اللذات ناقصة عرضة للآلام والذم والسخط ألا ترى أن لكل موجود فاعلا ومادة وصورة وغاية كما هو مشاهد وفاعل الانسان معلوم ومادته وصورته مفهومتان ولكن ما غايته مع أنه أجمع الحكماء على أنه ليس فى الكون شىء بلا ثمرة فلم يبقى الانسان بلا ثمرة وحده وهذا القول الأخير هو الموافق لسنن الكون وقوانين الحكمة وسير هذا النظام والموافق للقرآن قال تعالى إنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُهُ ثم يهيجُ فتراهُ مُصْفَرًّا ثم يكون حُطاماً وفى الآخرةِ

عذابٌ شديدٌ ومَغفرةٌ مِنَ اللهِ ورِضْوانٌ وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور سابقوا الى مغفرةٍ من ربكم وجنة عرضُها كعرضِ السماء والأرضِ أُعدَّت للذين آمنوا باللهِ ورُسُلِه ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ من يشاء واللهُ ذو الفضل العظيم)

فتأمل كيف أشار القرآن الى تنوع الانسان كتنوع النبات فالحق والحق أقول إن القرآن رمز فى غضون أمثاله الى علوم الحكمة ووكلها إلى العقول فها أنت ذا علمت أن القول الأخير من كلام الحكماء هو الأوفق لنواميس الكون وألصق بالبراهين العقلية و إن أحسن مثال له هو النبات فانظر كيف ذكره فى القرآن مثالا أبرزته تلك التشبيهات التى رأيتها وغيرها وقال فى آية أخرى (الله الذى خلقكم من ضَعْفٍ ثم جعل من بعدِ ضعفٍ قوةً ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشَيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) وقال فى آية أخرى (إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه مِنَ السماءِ فاختلطَ به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى اذا أخذَتِ الأرضُ زُخرُفَها وازيَنَّتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادِرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)

فهذا ضرب مثل للحياة على سطح الكرة الأرضية وماقبله تصريح بحال الشخص الواحد وما قبله ضرب مثل لحاليه فضرب المثل فى حال الشخص الواحد والأمم الانسانية بالنبات لما علمت من الحكم المندرجة ضمنه ولم يقتصر جل جلاله على ضرب هذا المثل وعطا بل جعله فى موضع آخر برهاناً مستدلا بعالم النبات وغيره على البعث رمزاً للبرهان الأخير الذى هو نتيجة إبحاث الحكماء فقال . (نحن خلقناكم فلولا تُصدقون أفرأيتم ما تُمنون أأنتم تخلقونه الآيات وقوله أأنتم أنشأتم شجرَتَها أم نحن المنشئون) فاستدل أولا بالنطفة فى الرحم وبالنبات وخروج الثمر منه وبالماء أن لها غاية وهكذا النار وما يستفاد منها فكأنه يقول هل خلق الجنين فى البطن إلا للترقى الى عالم أرقى وهى الحياة ويكون ترقيه على حسب المزاج الذى كان عليه فى بطن أمه أليس النبات جعل لغاية وهو الثمر ألم يكن نزول الماء لغاية أليست النار جعلت لمنافع الناس والاعتبار مع

أنها فى الأحجار والأشجار وكل شىء لتكون هذه كلها وهى الأجنة فى البطون والماء فى السحاب والنبات والشجر والنار لمنافع تنتج عنها ويكون وجودكم أنتم بلا ثمرة إلا الشقاء والآلام ثم تعدمون من الوجود بلا ثمرة مع أنكم أنتم أفضل الجميع بل هذه ما خلقت إلا لكم وإذا كان الأنقص المخلوق له غاية أفلا تكونون أنتم أولى بأن تكون لكم (ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) على أن الحكمة العامة والناموس الذى وصفناه فى الكون يقتضى الترقى فيصل العالم إلى النقطة العليا وهو الانسان ويقف الترقى (فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين)

أقسم هنا بعد تلك العبارات بالنجوم ومواقعها فى مدارتها على عظم أمر القرآن فذكر النجوم هنا لينبه الفكر إلى أنها أيضا لها فوائد وهى تلك المذكورات من لمولدات إذ كل ماذكر قبلها ناتج عن دورانها فى مواقعها وهذا كله فى ضمن عجائب القرآن التى لا تعرف إلا بدقة النظر والبحث فى علوم الحكمة مع كثرة الاطلاع

ثم ذكر بعدها أن الروح خفية لا تظهر عند خروجها وأفاد أنه أقرب الى الميت من الحاضرين والناس لا يبصرون، ثم ذكر انها ذات درجات عليا وسفلى ووسطى على حسب ما يكون الجنين فى الرحم ويخرج إلى الدنيا والحب والثمر فتأمل كيف كانت أدلة القرآن هى نهاية الحكمة فتارة تذكر تلك التمثيلات على أنها مواعظ وتارة أخرى على أنها براهين قاطعة (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) ومما قاله فى الوعظ (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) ومما قاله فى الاستدلال فى سورة يس (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة الى قوله فاذا أنتم منه توقدون) فتأمل كيف مثل بالثمر والنار إشارة إلى أن الروح تبقى بعد الموت كبقاء النار بعد الشجر وانها خلاصته والقصد الاشارة الى البقاء بعد الموت ثم يلبسها جلابيب الأبدان عند القيامة ويبعثها

عموم الوحدة فى الموجودات

إذا تأملت جميع نظامات هذا الكون رأيت الوحدة سارية فيها على غاية من الأحكام ولولاها لم يصح لها وجود ولم يكن لهذا النظام فائدة فلا تكاد ترى كوكباً فى نظام الكواكب إلا وهو جار على وحدة مخصوصة من حيث السير على نهج الصراط السوى (إنّ ربى على صراطٍ مستقيم) وجميع الكواكب لها وحدة مخصوصة فى الإتجاه والضوء وأن مداراتها اقطاع ناقصة فلها نظام يجمعها

وهكذا النبات اشترك كله فى وحدة تجمعه وهى النمو والتوالد التابعان للنفس النباتية فنفوس أنواع النبات والشجر وإن اختلفت فوجهتها واحدة وهى النمو والتوالد والسعى فى المصالح على حسب مبلغ ما أعطيت من القوى حتى إنك ترى العنب يلف خيوطه على عرشه الذى ينصبه الناس له كأنه يعلم أن ذلك هو الذى يقيه من التشتت وترى أوراق كل نبات تحذو نهجاً واحداً وهذا كله سير الوحدة وهكذا النفوس الحيوانية فكل نفس من هذه النفوس إنما وضعت فى هذه الأجسام ليتم اتحاد العناصر والقوى وتعيش زمانا ما ثم تنهدم فظهر من هذا أن كل شىء اعتنى به أشد اعتناء فان له نفساً تجمعه وتدبره لتضم شعثه ويبقى إلى أجل مسمى واذا كانت هذه الحيوانات الصغيرة بل والنباتات لها نفوس فبالأولى يكون هذا النظام وكواكبه لها مدبرات تدبرها كما تدبر أجسام الحيوانات وهى السماة ملائكة فان قال الطبيعى هى الجاذبية فنقول له صدقت ولكن الجاذبية عبارة عن ظواهر ذلك السر العجيب فياليت شعرى هل دبرت الجاذبية الميتة ذلك الحساب وعرفت ما يترتب عليه من الملوك والدول وأنواع المولدات وكيف يحوط الجاهل حياة العالم وكيف تمسك الجاذبية الجاهلة مالا يتناهى من النجوم عدا فلا تتلافى يوماً ما

واعمرى أن مثل علماء الفلك فى هذه الظواهر كمثل علماء الطب فكما أن الطبيب

لا بحث له إلا عن الروح الحيوانية التى منشؤها الدم ولا خبرة له فى الروح العليا التى تعقل وتعرف الهندسة والحساب والسياسة ونظام الأمم فهكذا عالم الفلك لا يعرف إلا ظواهر سير الأجرام الفلكية فيقول إن هنا جذباً بينها فدارت دورات لانهاية لها بالحركة الطبيعية ولم يدر أن الحركة كيف يخرج من جهلها علم وكيف كانت بشقائها تصلح العالم وياللعجب لهذه الحركة الغريبة التى دبرت أمر الحيوان والنبات وجعلت الكل يرتبط ببعضه ارتباطاً تاماً وبناء عليه قال الحكماء إن هذه الحركات فى الافلاك لها عالم يحفظها كنفوسنا عبروا عنه بالعقول وعبر عنه علماء الشريعة بالملائكة واذا كانت كل جملة من هذا العالم لها قوة تدبرها فالعالم كله جملة واحدة كذلك لما نشاهده أنه كله يتعاون كتعاون الجسد وكل كوكب ينفع بقية الكواكب نفعاً خاصاً فقد تحقق أن الكواكب بالنسبة لمجموع العالم كأنها أعضاء جسد واحد فها هو ذا القمر يستمد من الشمس ويضىء الهواء ويمتزج نوره بأنواع المولدات وكل كوكب فله فى الأرض تأثير خاص وجذب يؤثر على حركتها إذن فلابد أن يكون لهذا العالم كله مدبر واحد ترتبط به جميع هذه المدبرات وتستمد منه وهو مدبر هذا الكون وحده

واعلم أننا ذكرنا فوائد فى ميزان الجوهر تناسب هذا المقام ونقلنا هناك كلام العلامة فيليكس لامرون الفرنساوى فى الجاذبية وقوله أنه يعلم منها الفعل لا السبب فراجعه هناك فيالله الوحدة وفعلها فأشرف شىء فى هذا العالم الوحدة بها تم النظام وكلما كان الشىء اتم وحدة وأجمل صنعاً كان أتم تركيباً وأعلى شأناً وإلى هنا نشرع فى ذكر نظام الأمم ولا سيما أمة الاسلام مطابقين بينها وبين نظام الكون على حسب ما قدمناه وكيف يجب أن تكون وحدتها مطابقة لوحدة النظام الطبيعى فنقول .